الفصل العاشر

التجارة الداخلية

إذا أردنا معالجة هذا الموضوع وجب أن ندرس تجارة القرى والمدن على حدة ثم ننتقل إلى بيان العلاقات التجارية بين أنحاء البلاد مبينين المميزات الخاصة فى كل حالة وارتباط هذه الظروف المحلية بحالة البلاد عموما .

تجارة القرى والمدن :

من الطبيعى في بلد زراعى كمصر أن تقوم حياة المجتمع القروى على مبدأ الاكتفاء الذاتى إلى حد كبير فأهل القرية يزرعون فى الحقول المحيطة بها ما يحتاجون إليه من المواد الغذائية كالحبوب والبقول والخضر ، ويتخذون من طمى النيل المادة الأساسية للبناء ، ويحصلون من أشجار النخل واللبخ والجميز على ما يلزمهم من الخشب للوقود وإعداد بيوتهم وصنع البسيط من الأدوات ذات العلاقة المباشرة بحياتهم اليومية . ومن صوف الأغنام ووبر الإبل يغزلون وينسجون الأنواع السميكة والرخيصة من الملابس . ومن المؤكد أنه كان لكل قرية طاحونها كما كان لبعضها نجارها المحلى وحدادها الخاص فالقرية المصرية فى العصور الوسطى لم تكن فى حاجة شديدة إلى شراء الكثير مما يلزمها من المدن وبعبارة أخرى إن هذه الحياة الهادئة لم تكن من النوع الذى يشجع التبادل التجارى الكبير فضلا عن أن انخفاض الأجور وهبوط مستوى المعيشة وبخاصة فى الريف يجعلان حاجيات أهله ضئيلة بالقياس إلى أهل المدن .

وكان بمصر عدد كبير من المدن تشابه القرى فى بعض المظاهر فهى أو أغلبيتها صغيرة المساحة قليلة السكان ولها الطابع الزراعى إذ يمتلك بعض أهلها فى ظاهرها مساحات يستغلونها فى الإنتاج الزراعى وحتى الفسطاط نفسها كانت تحيط بها المزارع والبساتين يأخذ منها السكان بعض لوازمهم من الخضر والفاكهة . وبرغم هذا كان لابد من الاعتماد على الريف فى سد حاجات الأهالى من الغذاء ولا بد للريف أن يبيع الفائض عن حاجة أهله مما يزرعون . أضف إلى هذا أن الزراعة كانت

تمد صناعات المدن بالكثير مما يلزمها من المواد الأولية كما كانت المدن تسد بعض مطالب أهل الريف من الإنتاج الصناعى وأبسط أنواع الكماليات .

وهكذا نشأت الحاجة إلى التبادل بين المدينة والقرى المجاورة لها . ولتيسير هذا التبادل أصبح لكل مدينة سوقها الخاص بها وقضي نظام الاسواق فى ذلك العصر أن يتقابل البائع والمشترى وعن طريق هذه الأماكن تنظم التجارة بين الأهالى حتى لا يتحكم حاملو السلع فى أثمانها ولذا كان أهل القري يأتون بما لديهم من السلع إلى مكان معين وفى وقت معين أيضاً حتى يستفيد الجميع من عامل المنافسة . زد على هذا أن جهل الطبقات الفقيرة من أهل القرى والمدن قد يجعل منهم موضع الاستغلال ولهذا كانت الحكومة تشرف على الأسواق بواسطة عمالها فهناك المحتسب وأتباعه وهؤلاء يراقبون عمليات البيع والوزن والكيل وغير ذلك على ماسنوضحه التوضيح الكافى فى موضعه(١) . ولا تنس كذلك أن التسعير الذى جعله الفاطميون إحدى دعائم سياستهم كان القصد منهم على مانعتقد إيجاد سعر مناسب عجز للمنتجين وليس من شك أن تطبيق الأسعار الرسمية دون التلاعب بها انما يكون عملا ميسوراً إذا تمت عمليات البيع فى هذه الأسواق .

وقد أمدنا الجغرافيون والمؤرخون ممن كتبوا عن مصر فى العصر الفاطمى بأسماء كثير من المدن التى اشتهرت بأسواقها كمنوف ومحلة صرد وترنوط وقليوب ومنية ابن الخصيب وأهناس ومنية غمر ومليج وطماخ ودميرة والأسكندرية والفسطاط وقوص وأسوان(٢) وكان سوق دقدوس يوم الأربعاء (٣) ودمسيس يوم السبت (٤)

---

(١) فصلنا هذا الموضوع عن كلامنا على النظم المتعلقة بالتجارة : راجع ص ٢٤١ وما بعدها

(٢) ابن حوقل مسالك وممالك ص ٨٩ و ٩١ و ٩٦ ، ابن جبير : كتاب الرحلة ص ٤٤ و ٩٥

(٣) G Wiet: Resumé d' Idrisi, pp. 166, 168, 169, 172, 173, 174

Ibid p 173

وكان للجيزة كل يوم أحد سوق عظيم يجىء اليه من النواحى كثيرمن السلع ويجتمع فيه عدد كبير من الناس (١) . ويذكر الكتاب عن هذه المدن وغيرها أنها كانت « ذات أسواق وعمارات » أو « أسواق ومتاجر » ولكنا بجانب هذه العبارات نجد صيغة أخرى عن بعض المدن الصرية إذ يحدثنا الأدريسى أن بها أسواقا جامعة (٢) أو حافلة يتردد عليها التجار والقرويون لامن الجهات المجاورة وحدها بل من المدن البعيدة عنها إما لوقوع أمثال هذه المدن في أماكن متوسطة أو فى جهات ذات إنتاج زراعى كبيرة أو شهرة صناعية خاصة .

التجارة بين أجزاء البلاد المختلفة

ولكن مدنا كالفسطاط والقاهرة والأسكندرية لا تستطيع الاعتماد مطلقا على الإنتاج الزراعى فى الجهات المحيطة بها أو المجاورة لها وذلك راجع إلى كثرة سكانها إلى حد كبير وإلى اشتغالها بالصناعة ولهذا فهي فى أشد الحاجة إلى المواد الغذائية والأولية تحمل اليها من مواطنها فى أغلب أنحاء القطر والواقع أن معظم تجارة مصر الداخلية كانت تتجه نحو الفسطاط والقاهرة والموانى الشمالية ، فالفسطاط بلد كبير ثم قامت إلى جانبها القاهرة فى العصر الفاطمي وتركز فيها البلاط وألوف الناس من المتصلين به وأقام الأعيان والمقطعون فى هذين البلدين فكان من الطبعى أن يزداد النشاط التجاري فيهما فى هذا العصر وساعد على ذلك تقدم الصناعة فى الفسطاط خاصة وكثرة المطالب التى استلزمتها الحياة الاجتماعية التى تشاهد فى العصر الفاطمى ولهذا حدثنا ناصر خسرو أن منتجات البلاد كانت تنقل إلى العاصمة حيث يباع جزء كبير منها فى الأسواق (٣). وذكر ابن جبير أن عدداً كبيراً من المراكب كان يتوجه إلى المناطق المختلفة لاستجلاب القمح (٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٥

(٢) G. Wiet: Resumè d' Idrisi, p. 151.

(٣) Sefer Nemeh, p. 151.

(٤) كتاب الرحلة ص ٦٠

وكانت الأسكندرية تحصل على حاجتها من الحنطة من داخلية البلاد (١) عن طريق ألوف المراكب النيلية حتى بلغ عدد مارآه ناصر خسرو منها فى تنيس وحدها نحو ألف مركب(٢). وكانت أهم سلع التبادل الداخلى المواد الغذائية وبخاصة الحبوب من الوجه القبلي والفواكه من الفيوم وخلاف ذلك . وكذلك كانت تنقل بعض المواد الأولية مثل الكتان إلى المراكز الصناعية الكبرى كدمياط وتنيس والفسطاط وإلى جانب هذا توافرت بالبلاد حركة نشيطة بين مراكز النسج وبالأخص المدن الواقعة فى شمال الدلتا وبين القاهرة والفسطاط والاسكندرية حيث اشتد الإقبال عليها وهكذا نرى التقدم الصناعى كان ذا أثر بالغ فى نشاط الحركة التجارية الداخلية .

وقد امتازت بعض المدن بمركز تجاري ورخاء عظيمين واشتهر أهلها بالثراء إما لأنها كانت تقع فى وسط مناطق زراعية أو صناعية هامة وإما لأنها على طريق المتاجر المحملة إلى شمال البلاد وجنوبها بواسطة النيل وفروعه . فكانت المحلة الكبرى مثلا بلدا كبيراً عامراً بالأسواق والتجارات والخيرات الشاملة (٣) لأنها مركز منطقة شهيرة بزراعة الكتان والحبوب وبها حركة صناعية أيضاً . وكانت فوة من المراكز الهامة فى الدلتا لوقوعها على الطريق المائى الهام بين ساحل البحر الأبيض المتوسط والفسطاط بواسطة فرع رشيد (٤) كما أنها تقع على مقربة من الخليج الذى يخرج من النيل إلى الاسكندرية . وهذا الخليج قد أعاد الخليفة الحاكم بأمر الله تطهير أجزاء منه (٥) فكان ذلك خطوة لها قيمتها من جانب الفاطميين لتسهيل التجارة الداخلية ولقد بينا فى القسم الخاص بالتجارة الخارجية كيف نمت كثيراً فى هذا العصر وتبعاً لهذا زادت أهمية مدن كثيرة فى الوجه القبلى فهناك أسوان وهى ملتقى المتاجر الواصلة من النوبة والسودان وميناء عيذاب على البحر الأحمر وهناك قفط وتقع على الطريق المائى بين أسوان والفسطاط . ولدينا كذلك مدينة قوص وقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها

---

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٠

(٢) Sefer Nemeh, p. 112.

(٣) G. Wiet: Resumé d' Idrisi, p. 176.

(٤) Depping: Histoire du Commerce, Tome I, p. 65.

(٥) راجع ما كتبناه عن ذلك

عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل . فهذه المراكز قد عظمت حركتها التجارية وكثرت فيها الاسواق وزاد عدد سكانها ممن يشتغلون بالتجارة ويدل على مبلغ النشاط فى هذه المدن ماخلفه لنا أمثال ناصر خسرو فى أوائل العصر الفاطمى وابن جبير بعده بقليل من أوصاف وتفصيل .

مركز الفسطاط التجارى

إلا أن أعظم المراكز التجارية فى داخل البلاد كانت الفسطاط بلا منازع والحق أنها ظلت طيلة تاريخها الطويل مركز مصر التجارى وقد تخالفت ظروف كثيرة حتى أكسبتها هذا المركز الممتاز فهناك أولا موقعها على النيل وفى مكان متوسط بين الوجهين القبلى والبحرى وعلى مقربة من النقطة التى ينقسم فيها النيل إلى فرعيه الرئيسيين . أضف إلى هذا أنها متصلة بالنيل بكافة أنحاء البلاد من أسوان حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط وظلت منذ إنشائها حتى عهد الخليفة العباسى المنصور تتصل بطريق مائى بالبحر الأحمر وكذلك كانت الفسطاط ترتبط بالبلاد بواسطة القوافل حيث تخرج منها طرق برية مباشرة إلى الحجاز وبلاد الشام وبلاد المغرب وبدا وصلت اليها المتاجر من أوربا وآسيا وإفريقية وهنا عوامل كان لها أثر كبير فى تقدم حركتها التجاريه فى العصر الفاطمى فقد وضع جوهر الصقلي أساس مدينة القاهرة التى وفد اليها الخليفة المعز لدين الله ومعه أهله ورجاله وأجناده فصارت المدينة الجديدة أشبه بمعسكر زاخر بالألوف من الموظفين والجنود وغيرهم وهؤلاء جميعا كانوا يعتمدون على الفسطاط وأسواقها للحصول على المواد الغذائية والمصنوعات والسلع الواردة من الخارج . ويلاحظ أن إنشاء القاهرة لم يؤثر كثيرا على مركز الفسطاط إذ أوضحنا أن المدينة الجديدة ظلت زمنا أشبه بمعسكر خاصة وأن موقعها بالنسبة إلى النيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الأخيرة (١) أقل منها فى حاضرة البلاد الرسمية.

---

(١) الواقع أن الأسعار كانت تختلف من مكان إلى آخر وترجع هذه الظاهرة العامة فى البلاد الى أسباب كثيرة منها القرب من مراكز الانتاج أو البعد عنها كما أن البلاد الواقعة عند التقاء طرق تجارية هامة تكون فى العادة رخيصة الأسعار فى بعض السلع ، وقد يرجع تفاوت الأثمان الى موقع المدينة من ساحل النهر

وقد أسهب المؤرخون والرحالة ممن زاروا الديار المصرية في وصف عظمة الفسطاط ورخائها العظيم في العصر الفاطمي فقد حدثنا عنها المقدسي فقال « تكثر بها المتاجر والأسواق والمعايش وساحلها كثير المراكب وسكانها كثيرون حتى أن الفرسطي منا سار اليها خرج الناس اليه فرأتهم كأجراد » (١) . وأبدى ناصرخسرو في وصفها حماسا بالغا فذكر أنه كانت بها الأسواق التي تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة التي كانت ترد من جميع أنحاء العالم (٢) وبها الخانات وما لا يقل عن عشرين ألف دكان يتراوح إيجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية (٣) وبها من السفن أكثر مما في بغداد أو البصرة (٤) كما كانت بها العمارات الشاهقة التي بلغ عدد طبقات أحدها أربعة عشر طابقا (٥) وأنشئت بها الفنادق والقياسر والخانات والوكالات مما يدل دلالة واضحة على عظم النشاط التجاري بها (٦). إلا أن الظروف تخالفت حتى افقدت هذه المدينة مكانتها السامية إذ أخذت القاهرة بمرور الزمن تنمو وتجتذب اليها التجارة تدريجا من الفسطاط ثم حدثت الأزمة الكبرى في خلافة المستنصر بالله فهلك عدد وافر من أهل هذه المدينة وخربت احياء كاملة بها ثم أخذ النشاط يعود اليها بعد انجلاء هذه الغمة ولكنا لانعتقد أنه بمثل الدرجة التي كان عليها وأخيرا أصابتها الضربة القاضية حين أمر شاور باحراقها (٧)

= ومثال ذلك أن أسوان في منطقة زراعية تنتج الحبوب والتمر وتصل اليها المراكب من النوبة والمتاجر من البحر الأحمر ولذا رخصت الأسعار بها . والاسكندرية تعتمد على غيرها من الجهات لتموينها بالغذاء ولذا « كانت الحنطة بها غير مرخصة » (أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٠) ولم تكن القاهرة على شاطىء النيل وكانت الفسطاط على حافته ومحط واقلاع المراكب ولهذا السبب صارت أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة « شرحه : ص ٨٦ »

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٨

(٢) Sefer Nameh, p. 149.

(٣) Ibid p. 127.

(٤) Ibid p. 153.

(٥) Ibid. p. 14.

(٦) أنظر الفصول التي عقدناها على التجارة الخارجية

(٧) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٣٩

حين استعد الصليبيون للزحف من بلبيس عليها .

ولم تخل الطرق الداخلية سواء بالبر أو النيل من أخطار كما نعلم ذلك من قصة التاجر المغربى الذى اكترى عشارا فسار به فى فرع رشيد فهوجم فى الطريق وسلبت منه بضاعته (١) ولا بد أن مثل هذا الحادث كان كثير الوقوع وهذا يفسر لنا وجود حاميات على طريق التجارة (٢) لحفظ النظام وحماية القوافل وما تحمله التجار معهم من بضائع .

وكان التجار يتعرضون أحيانا للنكبات والخسائر من جانب الجنود ففى أيام الحاكم بأمر الله سخط الخليفة على أهل مدينة مصر فأرسل جنوده من السودان فاعملوا فيها السلب والنهب وحرقوا بعض أجزائها . وفى خلافة المستنصر بالله تعددت الفتنة والحرب بين الاحزاب السياسية وفرق الجيش المختلفة الجنس مما سبب فسادا كبيرا ثم جاءت المجاعة وتلاها الوباء فسببا خرابا كبيرا ولم يستطع أحد أن يضمن حياته وماله وأصبحت الطرقات غير آمنة لايستطيع أحد عبورها إلا بالخفارة الثقيلة . وبرغم المظاهر التى شرحناها عن رواج التجارة لم يخل الأمر من صعاب وعقبات قاست منها التجارة الداخلية كثيرا في العصر الفاطمى . وفى مقدمة هذه العقبات المكوس فقد فرضتها الحكومة على كل عمليات البيع والشراء فهناك رسوم على البضائع الواردة على المدن والتفتيش والمخازن والأسواق والبضائع الصادرة من المدن وحراسة الغلات بالمقسن ورسوم السمسرة والدلالة وأجور استخدام المعديات على النيل وغير ذلك كثير مما نعرفه من مراجعة أسماء المكوس التى ألغاها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٩ هـ (٣) . وهذه الرسوم والعوائد الداخلية لم تسكن قاصرة على الفسطاط وحدها وإنما كانت سياسة متبعة فى كافة أنحاء البلاد وقد أثارت هذه القيود المالية الرحالة ابن جبير (الذى زار مصر بعد سقوط الفاطميين بمدة يسيرة) حتى قال ساخطا متهكما « هناك مكوس على كل مايباع ويشترى مهما دق أو جل حتى كان

---

(١) الاعتباط فى حلى مدينة الفسطاط « مخطوط » جـ ٤ ص ١٠١

(٢) J. Mann: The Jews in Egypt and Palestine under The Fatimid Caliphate p. 32.

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٥

يؤدى على شرب ماء النيل فضلا عما سواه» (١) . ولعل هذه الرسوم قد زاد عددها واشتدت وطأتها فى أواخر العصر الفاطمى . ومع ذلك لا نظن أنها كانت بالقدر الذى امتازت به بعض جهات أوربا فى العصر الاقطاعى . ونعتقد أنه لولا أن التجارة فى هذا العصر الزاهر الذى ندرسه كانت متينة الأسس لما تحملت هذه الرسوم التى غالى ابن جبير فى وصفها .

ومن العقبات الكبرى التى قامت فى سبيل مرونة استخدام رؤوس الأموال وسرعة تداولها وحسن استغلالها تحريم الربا وقد نص القرآن فى أكثر من مناسبة على هذا بشدة . قال الله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) (٢) (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل)(٣) وإذا تذكرنا كيف أن الحياة الاقتصادية الحديثة مدينة بالكثير من اتساعها إلى نظام الاقتراض والائتمان أمكننا أن نقدر أثر هذا التحريم فى التجارة فى العصور الوسطى . ومع هذا ينبغى ألا نظن أن الناس كانوا يتمسكون بنصوص هذه النواهى الشرعية فكثيرا ما كان بعضهم يقترض من بعض ولا نشك أن اليهود كانوا يقومون باجراء مثل هذه العمليات شأنهم فى كل العصور .

ومن العقبات التى كانت فى سبيل التجارة الداخلية ما يتعلق بالموازين والمكاييل إذ نظرا لعدم الدقة فى الصنعة فى ذلك العصر كانت تتعرض الصنج للتلف السريع والتآكل ولهذا كان على المحتسب مراقبة الموازين والمكاييل على الدوام وأن يطلب من الباعة استبدال صنجهم أو اصلاحها فى دار معدة لهذا الغرض . أضف إلى هذا أن قيمة الرطل كانت تختلف حسب نوع السلعة المراد وزنها فهناك رطل خاص لوزن الفلفل وآخر للحرير وهكذا أى أن الاختلاف مرجعه رخص ثمن السلعة أو ارتفاعه أو ندرتها(٤). وأخيرا فلم يكن وزن الرطل واحدا فى البلاد كلها بل كان لكل بلد

---

(١) كتاب الرحلة ص ٥٦

(٢) سورة البقرة

(٣) شرحه

(٤) M. H. Sauvaire. Matèriaux pour servir à l 'histoire de la numismatique et de la métrologie Musulmanes.
(J. A. 8é, lv, pp. 217-18. D' aprés Eliyà, chap. IV)

و منطقة رطلها الخاص بها كما يتضح من البيان التالى (١) .

النـــوع	مقدار الوزن
الرطل المصرى	١٢ أوقية وكل أوقية ١٢ درهم فكأن الرطل المصرى يساوى ١٤٤ درهما
« الجروى	٣١٢ درهم
« الليثى	٢٠٠ «
« الحريرى	١٢٠ « وهو خاص بوزن الحرير
« القليونى	١٥٠ «
« الفيومى	١٥٠ «
« الفلفلى	١٥٠ « لوزن الفلفل
رطل أسيوط وطحا وطهطا	١٠٠٠ «
« المحلة	٤٠٠ «
« دمياط	٣٣٠ «

وقد ذكر الذهبى البيانات التالية (٢)

الرطل الحريرى ١٦٢ درهم

رطل سمنود ٣٠٠ درهم

وما أورده عن أرطال الجهات الأخرى لايختلف عما أشرنا إليه آنفا . وقد استتبع اختلاف الأرطال تفاوت القناطير كذلك فمثلا كانت الحكومة تشترى الشب بالليثى وتبيعه بالقنطار الجروى (٣) وكان محصول فدان القطن ثمانية قناطير بالجروى (٤) وكان بمصر كذلك القنطار الفلفلى (٥) . أما القنطار فيساوى ١٠٠ رطل . وذكر مخطوط بمكتبة الاسكوريال فى أسبانيا أن القنطار المصري يساوى ٢٥ رطلا إلا أن

---

(١) (نقلا عن إرشاد الكاتب) Ibid, pp. 221 – 22.

(٢) Ibid, pp. 239.

(٣) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين « لناشره ع ، ع . سوريال » ص ٣٢٨

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٢

(٥) شرحه جـ ٢ ص ٢٧٤ « والحديث خاص بنصف قنطار فلفلى من الشمع وتاريخ ذلك سنة ٤٠٠ هـ »

Sauvaire يرى فى ذلك خطأ من الناسخ ويعتقد أن الأصح أن تقرأ الرقم هكذا (١٢٥)(١) واختلف كذلك مبلغ ماتحتويه الأوقية من الدراهم وقد اورد لنا سوفير بيانا وافيا عن الأوزان فى مختلف بلاد العالم الاسلامى نقتطف منه ماهو خاص بمصر . وقد ذكر أمام كل وحدة مايقابلها بالجرام المستعمل اليوم (٢) .

(ا) قيمة الأواقى بالدراهم والجرامات :

نوع الأوقية	الدراهم	الجرامات	المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف
أوقية رطل مصر	١٢	٣٧ر٠٧٧٦	ارشاد الكاتب
« « قليوب والفيوم والرطل الفلفلى	١٢½	٣٨ر٦٢٢٥	» »
« الرطل الليثى	١٦⅔	٥١ر٤٩٦٦⅔	» »
« « الجروى	٢٦	٨٠ر٣٣٤٨	» »
« رطل دمياط	٢٧½	٨٤ر٩٦٩٥	» »
« « قوة	٣٠	٩٢ر٦٩٤٠	» »
« « المحلة	٣٣⅓	١٠٢ر٩٩٣٣⅓	» »
« « أسيوط وطحا وطهطا	٣٣٦	١٠٣٨ر١٧٢٨	» »

(ب) قيمة الأرطال بالدراهم والجرامات (٣)

المصرى	١٥٠	٤٤٤ر٩٣١٢	الزهراوي ، ارشاد الكاتب ، ناصر خسرو ، النبراوى والذهبى

---

(١) M. H. Sauvaire. Matériaux pour servir à l' histoire de la numismatique et de la métrologie musulmanes. (J. A. 8é, ly, p. 263.)

(٢) Ibid, pp. 302. 303, 304.

(٣) Ibid pp. 310, 311, 312, 313, 314, 215.

قليوب	١٥٠	٤٦٣٫٤٧٠٠	
الفيوم	»	»	
الفلفلى	»	»	
الليثى	٢٠٠	٦١٧٫٩٦٠٠	ارشاد الكاتب
الجروى	٣١٢	٩٦٤٫٠٤٧٦	» »
دمياط	٣٣٠	١٠١٩٫٦٣٤٠	» »
فوة	٣٦٠	١١١٢٫٩٢٠٠	» » والذهبى
أسيوط وطحا وطهطا	١٠٠٠	٣٠٨٩٫٨٠٠٠	» »
طحا	١٢٠٠	٣٧٠٧٫٧٦٠٠	الذهبى

وكانوا يستعملون فى مصر أوزانا مصنوعة من الزجاج لوزن نقود الفضة واخرى لوزن نقود الذهب ونعتقد أن السبب فى هذا أن تلك الأوزان الزجاجية يمكن أن تظل نظيفة فلا يعلق بها شىء الأمر الذى يجعل الوزن بها دقيقا أضف إلى هذا أن أى تآكل فيها يمكن إدراكه بسهولة وهذا ما لايتيسر فى الصنج المعدنية فى ذلك العصر. وإن أوزانها تنطبق على ما أورده الكتاب المختلفون بشأن وزن الدينار والدرهم ومضاعفاتهما وأجزائهما (١) ولم يكشف من هذه القطع إلا الصغير منها مما كان يستعمل لاختبار نقود الذهب والفضة وهذا سببه أن الزجاج لايصلح لوزن السلع الثقيلة الوزن إذ يكسر بسهولة ولهذا تستعمل لها أوزان من النحاس ومعادن أخرى (٢). وهذه الأوزان الزجاجية إما قطع مستديرة أو اسطوانية مخروطية الشكل (٣) وقد كشف أكثر من ثلاثمائة قطعة من العصر الفاطمى. ويظهر أن استعمال الأوزان الزجاجية كان خاصاً بمصر ويبدو أن هذا البلد كان حلقة بين الشرق والغرب وله مميزاته الخاصة فى كثير من النواحى ويقول Stanley Lane-poole

---

(١) Stanley Lane-Poole. Catalogue of Arabic Glass Weights. (See Introduction, p. XIII)

(٢) Ibid (Introduction, p. XVI)

(٣) Casanova. Etude Sur les inscriptions des poids et des mesures en verre, pp. 17-24

من ثلاث وأربعين قطعة تحمل أسماء ولاة فى عصر خلفاء بنى أمية والعباسيين نجد أربعة وثلاثين منها تحمل أسماء ولاة وموظفين فى مصر ومن العدل أن نفترض أن الباقى لايختلف عن هذا وإن لم يمكن تحقيقه حتى الآن . وهناك ١٨ قطعة عليها أسماء خلفاء عباسيين ، ولكن ينبغى أن نذكر أنها تنتمى جميعا إلى الأوقات التى كان فيها الولاة أو الأمراء الذين حكموا مصر يعترفون بسيادة بغداد وأثناء العصر الفاطمى كله لا نجد أوزانا زجاجية عليها أسماء الخلفاء العباسيين . . . . ويمكن أن نضيف إلى ماسبق أن أغلبية الأوزان الزجاجية التى فى المتحف البريطانى قد كشفت فى خرائب مصر (١) .

وكانت الأوزان الزجاجية الفاطمية كالأرطال والمكاييل الاخرى تحمل صيغة خاصة بهم (٢) فعلى القطع نقش اسم الخليفة على حدة أو متبوعا فقط بصيغة دينية وأحيانا بالتاريخ الذى صنعت فيه القطعة كما يتضح من الأوصاف التى نذكرها عن بعضها مما يوجد فى المتحف البريطانى وأورده ستانلي فى مؤلفه .

(١) ضعف دينار (٣) ونجد فى الوسط كلمة (عدل) وفى الاطراف (الامام العزيز بالله أمير المؤمنين) والقطعة خضراء اللون ذات بريق معدني .

(٢) وعلى دينار نجد العبارات التالية (٤)

مما أمر به
الامام العزيز
بالله أمير
المؤمنين

---

(١) Catalogue of Arabic Glass Weights, (Introduction, pp. XvII — XvIII)

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٠

(٣) Stanley Lane-poole. Catalogue of Arabic Glass Weights. p. 42

(٤) Ibid, p. 42.

(٣) وعلى قطعة أخرى (١)

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

على ولى الله

الامام الحاكم

بأمر الله أمير

المؤمنين مما عمل فى سنة

ثلث وأربع مائة

عدل

حسبى (٢)

الله

الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين

فهذه العبارات الدينية وغيرها مثل « آل محمد » (٣) تشابه ما نجده على قطع النسيج التى ترجع إلى هذا العصر أى أن الفاطميين لم يدعوا فرصة إلا انتهزوها لاثبات مركزهم الدينى وصلتهم ببيت النبوة وعلاقتهم بها وأحقيتهم فى الخلافة .

ولاحظ كازانوفا أن ١٩١ قطعة من الثلثمائة التى أشار اليها تحمل أسماء الخلفاء فى العصر الفاطمى الأول حتى نهاية خلاف المستنصر بالله : ٢١ فقط فى عهود من خلفوه (٤) كما كانت النسبة عالية فى عهد الحاكم بأمر الله وهو أكبر داعية فاطمى ثم أخذ شيخ الجبل ينازع الفاطميين الإمامة بعد ذلك .

وتلاحظ من البيانات التى أوردناها كلمة (عدل) وكذلك نجد على بعض الأوزان

---

(١) Stanley Lane-poole. Catalogue of Arabic Glass Weights p. 44.

(٢) Ibid. p. 47.

(٣) Casanova. Etudes sur les inscriptions Arabes des poids et mesures en verre, p. 29.

(٤) Ibid, p. 31.

والأكيال كلمة (واف) أو مايقاربها فى المعنى وكلها عبارات تدل على معنى الوفاء (١). ذكر المقريزى أنهم كشفوا فى إحدى قرى تنيس ما غلب عليه الماء عضادات من الزجاج عليها أسماء المعز والعزيز والحاكم والظاهر ومنها ماعليه اسم المستنصر (٢). ويعتقد كازانوفا أن كلمة « عضادات » لامعنى لها فى هذه القطع الزجاجية الصغيرة ولابد أنها خطأ من الناسخ والأوفق أن تقرأها « غضارات » (٣)

وأخيرا نذكر أن من عقبات التجارة فى مصر كثرة تعرض النقود للتآكل والتلف بسبب عدم ارتقاء فن صنعها إلى الحد الكافى خاصة من حيث الأطراف ولهذا كانوا يلجأون إلى الصيارف لوزن النقود والتأكد من أنها وافية . وقد أشرنا في حديثنا عن النقد إلى ما كانت تعمله الحكومة الفاطمية أحيانا من تخفيض العملة وان لم يكن هذا ظاهرة أو قاعدة عامة .

---

(١) المصدر السابق « على إحدى القطع العبارة التالية وزن نصف دينار وافى (p. 17) وعلى قطعة أخرى نجد تحت الكتابة العربية نجما بين هلالين ولعل هذه العلامة دليل الوفاء (p. 22) »

(٢) الخطط جـ ١ ص ١٨١

(٣) Etude Sur les inscriptions Arabes des poids et des mesures en verre, p. 32 - 33

التجارة الخـــارجية

أوضحنا من قبل كيف تجمعت ظروف مختلفة وعاونت على اســتئناف العلاقات التجارية بين مصر وأوربا منذ القرن العاشر الميلادى . وأخذت هذه الصلات تزداد نموا ويتسع نطاقها تدريجاً تمهيداً لذلك التوسع الـكبير الذى كان مقدراً لها منذ بداية الحروب الصليبية . وبعبارة أخرى نقول إن الفترة التى امتدت من القرن العاشر إلى الثانى عشر فترة تطور وانتقال من حالة الركود السنى التى تلت الفتح العربى لمصر الى حالة الازدهار التى بدأت فى القرن الثانى عشر . وهنا تتضح لنا أهمية العصر الفاطمى فى تاريخ تجارة مصر فى العصور الوسطى . ولقد كان للخلفاء الفاطميين منذ انتقالهم إلى القاهرة من بعد النظر السـياسى وإدراك القواعد الاقتصادية ما جعلهم يعملون جهد طاقتهم علي الاستفادة إلى الحد الأقصى من الأحوال الجديدة فى عهدهم وبذل ما فى استطاعتهم من قوة حتى يعود إلى طريق مصر نشاطه القديم وحركته السابقة كممر طبيعى بين الشرق والغرب وسنرى كيف كانت سياستهم متفقة مع هذه الغايات مؤدية إلى تحقيق هذه الاغراض .

وينبغى لنا قبل أن ندرس علاقات مصر التجارية مع الدول الأجنبية أن نتعرف بعض العوامل التى جدت فى هذا العصر ولاءمت النشاط التجارى . وأول ما يسترعى التفاتنا تحول الظروف العامة فى أوربا منذ القرن العاشر الميلادى ، ذلك أن موت شرلمان أدى إلى تسرب الضعف فى جسم الأمبراطورية التى أقامها بقوة السلاح وعظمة الشخصية وانتهى الأمر بانقسامها بمقتضى معاهدة فردون سـنة ٨٤٣ م . وقد أظهر أحفاده عجزاً واضحاً وتعرضت أوربا لموجة من الغزو على يد شعوب متبربرة آتية من الشمال كان دينهم القتل والسلب والنهب ولم تسلم من فظائعهم حتى الـكنائس والأديرة ، وأخفق أمراء الإقطاع فى حماية البلاد حماية فعالة وتعطلت مصـالح الناس وخيل للـكثيرين أن ما تبقي من آثار الحضارة الرومانية القديمة قد أشرف على الزوال .

إزاء هذه الظروف اشتدت الحاجة فى أوربا إلى ضرورة قيام حكومات مركزية

قوية فى استطاعتها حفظ النظام وتسهيل التبادل الاقتصادى وتأمين الأنفس والأموال وقد بدأت هذه الحركة القومية فى ألمانيا فى القرن العاشر على أيدى الملك هنرى

(٩١٩ — ٩٣٦) وخليفته اوتو الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣) وقامت حركة مماثلة في فرنسا حينما تولى هيو كابت (Hugh Capet) العرش عام ٩٨٧ م وهو رأس الأسرة التى عمل أربعة عشر ملكا من أفرادها على توحيد البلاد وتأييد النظام والسلام فى الداخل . ومن بدهى القول أن نشير إلى أن ظهور هذا العامل الجديد مؤد الى الاستقرار وانتظام الأحوال وازدياد حاجات الناس ومطالبهم لتتفق والروح الجديدة ، ومؤد فى الوقت نفسه إلى اشتداد الحاجة إلى استئناف التبادل التجارى مع إفريقية وآسيا . ولاريب أن هـذه الظروف الجديدة بدأت ونمت فى العصر الذى خضعت فيه مصر للسيادة الفاطمية منذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . والواقع أن عصرا جديداً قد بدأ من القرن الحادي عشر ويدل على هذا ازدياد عدد الحجاج الأوربيين إلى فلسطين أضعاف ما كان عليه ولم يعد الأمر قاصراً على الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان بل أصبحنا نشاهد سيلا متدفقا نحو الأماكن المقدسة من أفراد الطبقة الوسطى والعامة بل لقد ساهم النساء بنصيب فى هذا العمل يدفعهن الصلاح والتقوى وهو أمر لم يكن له نظير فى عصر سابق (١) . وكان معظم هؤلاء الحجاج يؤثرون طريق مصر والمرور بصحراء سينا لما فيها من ذكريات دينية فاذا أدوا الفريضة عادوا إلى أوطانهم يحملون آراء وأفكارا ومشاهدات فضلا عما كانوا ينقلونه من المنتجات الصناعية والزراعية وما فيها من الغلات التى كانت ترد عادة من أواسط قلب أفريقيـة ومن أراضى القـارة الأسـيوية . وكان الزمن كفيلا أن يوضح للأوربيين أهمية هـذه الغلات . وليس من الغلو فى القول أن نفسر الحروب الصليبية اقتصاديا فالواقع أن كتلة العالم الإسلامى كانت تفصل قارة أوربا عن البلاد الأسيوية التى تنتج الغلات والسلع التى يحتاجها الاوربيون وكان المسـلمون يتحكمون فى طريق نقل هذه السلع فى البحر والبر ويفرضون عليها الرسوم العـالية ويقيدون

---

(١) See Beazley: Dawn of Modern Geography Vol. II. Chapter about Christian pilgrims

نشاط التجار الأوربيين فى داخلية بلادهم ويجعلونهم تحت رحمتهم ، كما أن الضعف الذى عرا الشرق الإسلامى بسبب تضاؤل سلطان الخلفاء العباسيين جعل التجارة غير آمنة ولهذا كان من الأصلح لأهل أوربا أن يستولوا على سواحل الليفانت وينفذوا منها ناحية الشرق وبهذا يسيطرون على طرق نقل الغلات الأسيوية ويتصلون اتصالا مباشراً إن استطاعوا بمصادرها وهذا كله يؤدى إلى سهولة الحصول عليها وهبوط أسعارها . ولم يكن فى الإمكان الوصول بحرا إلى الهند وجزر الهند الشرقية إذ لم يكن فن الملاحة وعلم الجغرافيا قد تقدما إلى الحد الكافى الذى يسمح للأوربيين بمحاولة الوصول إلى تلك البلاد بطريق المحيطين الأطلسى والهندي حول إفريقية كما فعلوا فيما بعد .

ومن العوامل الهامة كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية التى ورثت مركز الدولة الرومانية الغربية أخذ نفوذها في الازدياد حتى بلغ مبلغاً عظيما منذ القرن الحادي عشر كما يتضح من دراسة تاريخها وعلاقاتها بالدول الأوربية وبخاصة الإمبراطورية الرومانية المقدسة . هذه الكنيسة التى أصبحت قوة زمنية عظيمة السلطان أخذت تفقد بساطة العهد المسيحى الأول برسله وقديسيه لتحل محل ذلك روح طابعها الترف . ولما كانت روما قبلة المسيحيين فى أوربا انتقلت هذه الروح منها إلى الكنائس الأخرى فى القارة وتطورت الطقوس الدينية وتعقدت مظاهرها بشكل يؤثر فى نفوس الشعوب الجرمانية خاصة التى لم يكن قد مضى على اعتناقها المسيحية إلا القليل . فأسرف رجال الدين في استعمال البخور والعطور كما اشتدت الحاجة إلى توابل الشرق لحفظ الأطعمة تبعاً للحياة الدينية وما فيها من صوم . وهكذا بدأنا نلمس منذ القرن التاسع الميلادى احتمالات عظيمة لقيام نشاط تجارى واسع المدى وازداد الطلب فى أوربا على هذه السلع الشرقية .

وإزاء هذه الاحتمالات التى تنبئ بقيام عهد جديد فى العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب كان من الضرورى قبل كل شىء تطهير البحر الأبيض المتوسط من البحارة المسلمين الذين كانوا يجوبون أرجائه ويهاجمون السفن المسيحية والسواحل الاوربية ولا يتم هذا التطهير إلا بانتزاع الجزر الكبيرة التى يتحكمون منها فى طرق المواصلات . وقد بدأت هذه الحركة على يد الدولة البيزنطية حينما تمكن الامبراطور رومانوس من الاستيلاء على جزيرة كريت فى مارس عام ٩٦١ م . ولما اعتلى

(Nicophorus Phocas) العرش استخلص قبرص عام ٩٦٥ م وأوقع الهزيمة بالأسطول المصرى الذى حاول استرجاعها (١) . أما صقلية فاستمرت فى أيدى المسلمين زمناً ثم دب الشقاق بين أمرائها فلم تعد خطرا كبيراً على الملاحة المسيحية ثم زال هذا الخطر نهائياً باستيلاء النورمنديين عليها فى القرن الحادى عشر (٢). وهكذا أصبحت التجارة آمنة فى الليفانت (Levant) وبين شمال البحر الابيض وجنوبه وبين شرقه وغربه إلى حد كبير وكثر ورود السفن الإيطالية إلى الموانى المصرية .

وقد وافق قيام الدولة الفاطمية فى مصر الظروف التى أشرنا إليها بصدد أوروبا وساعد كثيرا على ازدياد الارتباط مع الدول الأوربية والأسيوية وغيرها إذ كان التسامح الدينى الطابع الذى امتازت به سياسة الخلفاء الفاطميين فأطلقوا لأهل الذمة الحرية فى شتى مظاهرها (٣) فاستغلها الكثيرون فى الميدان الاقتصادى كما فتحت البلاد أبوابها للتجار الأجانب يفدون عليها من أوربا والشرق حاملين سلعهم العظيمة القيمة والمنفعة .

كما أن قيام الدولة الجديدة كفل توافر عنصر الأمن والاستقرار فى داخل البلاد وهو عامل وثيق الصلة بالتقدم الاقتصادى . أضف إلى هذا أن مصر أصبحت دولة مستقلة تمام الاستقلال ولها حكومة ربطت مصلحتها بمصلحة البلاد ورسمت لنفسها سياسة متشعبة النواحى فتستطيع إذن أن تتخذ لنفسها الخطة التى تساعد على تنمية علاقاتها التجارية مع مختلف الدول . وتستطيع هذه الحكومة المستقلة فى مصر أن تضع لنفسها كذلك سياسة جمركية ثابتة تمكنها من إنشاء العلاقات مع الدول التى ترجو من وراء الاتصال بها نفعا كأن تعمل على تخفيض الرسوم على التجارة مثلا وغير ذلك مما لايتيسر لو كانت البلاد تابعة لغيرها كالخلافة العباسية فتضطر إلى

---

(١) Cambridge Medieval History Vol IV, pp. 144—45

(٢) Stanley Lane-Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 158.

(٣) مع استثناء الفترة التى تعرضوا فيها للاضطهاد فى عصر الحاكم بأمر الله : أنظر الفصل الأول من الباب السادس من كتاب (الفاطميون فى مصر) للدكتور حسن ابراهيم حسن خاصة ص ٢١٧ من السطر الحادى عشر الى ختام الصحيفة

مجاراة سياسة الدولة صاحبة السيادة عليها حتى ولو لم يكن لمصر فى ذلك أدنى مصلحة.

أشرنا فى باب الصناعة إلى اهتمام الفاطميين البالغ بانشاء أسطول يكفل لسواحل مصر والشام السلامة فأصبحوا فى مسيس الحاجة إلى الاتجار مع البلدان الأوربية وغيرها التى تزودهم بالمواد الأولية اللازمة لتحقيق هذا الهدف لأن مصر فى هذا العهد أصبحت مقر إمبراطورية تنافس بغداد وقرطبة بعد أن كانت ولاية تابعة . وقد أوضحنا من قبل ما امتاز به العصر الفاطمى من مظاهر الترف وأشرنا إلى رقى الفنون المختلفة فضلا عن إكثارهم من الرقيق من الجنسين الاسود والابيض ولهذا عملوا على الحصول ذلك كله من أوربا وإفريقية وآسيا .

ولا يسعنا قبل ختام هذه الكلمة أن نغفل إيضاح الاسباب التى دفعت التجار الغربيين إلى تفضيل الطريق المصرى فى العصر السابق للحرب الصليبية . فنلاحظ أولا أن الطريق من الشرق إلى الغرب عبر مصر أفضل بكثير من الطريق المنافس له عبر بلاد الجزيرة والشام إذ يستغرق وقتا اقل (١) ولذا كانت تكاليف النقل أشد انخفاضاً الأمر الذى أدى إلى رخص أسعار السلع بالنسبة إلى تلك التى كانت تنقل عن طريق بلاد الشام ،

ولما كانت المدن الإيطالية مثل بيزا وأمالفى وجنوه أول من اشتغل بالتجارة مع الشرق وكانت مصر أقرب من الشام إلى إيطاليا أصبح من الطبيعى تفضيل هذا الطريق. أضف إلى هذا أنه يسهل على السفن المسيحية التى ترد إلى الاسكندرية أن تنقل غلات آسيا الشرقية لتوزيعها فى مختلف جهات بلاد المغرب ومبادلتها بمنتجات الأخيرة مما تحتاجه الشعوب الاوربية .

ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا تمر خلاله البضائع الاسيوية بل كان لديها ماتصدره إلى أوربا كالنطرون والشب والكتان والمنسوجات الثمينة كما أن حاجتها إلى الخشب والحديد جعل السفن الأوربية تأتى إلى الموانىء المصرية محملة بهذه السلع.

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce Tome I, p 384.

أما الشام فتوافرت بها تلك المواد ولم يكن لدى أوربا فى تلك الفترة من تاريخها ما تعطيه وهى قد بدأت تخرج من العصور المظلمة كما تسمى بحق . وأخيراً فبرغم ما فى الشام من مواد أولية تحتاجها أوربا فان الأحوال السياسية فيها لم تكن مستقرة تماما إذ كثرت بها منذ القرن التاسع الفتن والإضطرابات الداخلية (١) بسبب تنافس الأمراء والقواد وبذا تعرضت التجارة لرسوم جمركية كثيرة . وحتى فى العصر الفاطمى لم تنجح الحكومة فى إقرار الأمن والسلام هناك ثم هاجمت الدول البيزنطية شمال الشام وتوغل أحد أباطرتها حتى فلسطين (٢) واستمرت المناوشات قائمة بين البيزنطيين والفاطميين من جهة وبينهم وبين العباسيين من جهة أخرى وهذه كلها ظروف لا تلائم التجارة الخارجية كثيرا .

---

(١) Stanley Lane-Poole: Egypt in the Middle Ages, Ch. VI, p. 158 etc.

(٢) Cambridge Medieval History, Vol IV, pp.156-150.

العلاقات مع امالفى

كان لهذه المدينة علاقات تجارية مباشرة مع مصر والشام وغيرهما من البلاد الإسلامية الواقعة على الشاطىء الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط إذ كان لتجارها فى مدينة إنطاكية حى خاص بهم قبل عام ١٠٩٨م(١) وأربعة أحياء تجارية فى جزيرة صقلية برغم خضوعها للفاطميين(٢). وكان اهتمام تجارها موجها فى الغالب إلى نقل المنسوجات الحريرية لتغذية سوق روما لأن امالفى كانت أقرب إلى العاصمة الدينية للعام المسيحى(٣). وكان مصدر هـذه السلع المناسج المصرية خاصة التى اشتهرت بانتاج الانواع الفاخرة التى يسعى أهل روما وغيرها إلى الحصول عليها . ويحدثنا الكاتب الأشهر (Heyd) فى كتابه عن تجارة الليفانت (ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣) أن أحد أغنياء امالفى ويدعى (Maurus) أتى بعدد من مهرة الصناع والفنانين إلى مسقط رأسـه من القسطنطينية والأسـكندرية لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء وبالطبع لم يتمكن من إحضار الفنانين المصريين إلا بواسطة التجار من قومه ممن كانوا يكثرون التردد على الموانى المصرية . وقد أنشأ ماوروس هذا لأهل أمالفي مستشفى فى انطاكية واعتزم إقامة مثلها فى بيت المقدس ونظرا لخضوع فلسطين للسيادة الفاطمية كان من الضرورى استئذان السلطات المصرية ودارت مباحثات فى هذا الصـدد انتهت بموافقة الخليفة الفاطمى عام ١٠٢٠ م على منحه قطعة من الأرض شيد عليها فى الحى المسيحى بالبلدة دير (Marie de Latina) لإيواء الحجاج والتجار من أهل امالفى . ثم زيد عليه بعد ذلك قسم خاص للنساء (٤) وقد تغنى (Guillaume de la Poville) بما تمتعت به هذه المدينة من رخاء كبير بسبب علاقاتها التجارية مع البلدان الأخرى وبالأخص الأسكندرية

---

(١) Beazley: Dawn of Modern Geography Vol II. p. 396.

(٢) Landra: Corso di Storia del Commercio, Parta I, p. 80.

(٣) Newbigin: Mediterranean Lands, p. 185.

(٤) Beazley: Dawn of Modern Geography, Vol II. p. 397 & Heyd: Histoire du Commerce, Tome I, pp. 102—104.

وأنطاكية (١) وكان لها فنادق بالاسكندرية إذ قال (Beazley) إن « المصانع » التى كانت لاهلها فى جزيرة صقلية تشبه ما كان لهم من الفنادق فى دلتا النيل (٢).

إلا أن هذا الرخاء لم يدم طويلا إذ دفع اعتداء اللومبارد عليها فى أوائل القرن الحادى عشر أهل امالفى إلى الاستنجاد بالنورمانديين حكام صقلية فتدخلوا فى شؤونها وانتهى الامر بأن قضى (Robert Guiscard) ١٠٧٣ م على استقلال المدينة نهائيا(٣). وكأنما أراد سادتها الجدد ألا يشعر أهلها أن التغيير الذى أصاب مركزهم السياسى لن يؤد إلى القضاء على تجارتهم فوعدهم (Roger II) بالسعى لدى البلاط الفاطمى فى سبيل تخفيض الرسوم التى يدفعونها على المتاجر التى ينقلونها إلى مصر ويحملونها منها إلى المستوى الذى تمتع به تجار صقلية (٤). وإن ذكر مصر بالذات لا كبر دليل على نشاط العلاقات التجارية بين البلدين وعلى أن هذه العلاقات لم تتوقف نتيجة لضياع استقلال امالفى. إلا أن هذا التغيير السياسى لابد أنه كان ذا أثر بالغ فى تضاؤل تجارة المدينة وانحطاط شأن اتصالها بمصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce Tome I p. 106.

(٢) Beazley: Dawn of Modern Geography Vol II p. 400.

(٣) B. Duffa: Tuscan Republics p. 7.
Encyclopedia of Islam. Heyd: Histoire du Commerce I p. 99—191

(٤) Heyd: Histoire du Commerce Tome I pp. 391-2.

العلاقات مع جنوا

برغم موقعها الملائم للنشاط التجارى كان هذا النشاط محدوداً فى الفترة الواقعة بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين نتيجة لاستيلاء اللومبارد على ليجوريا « Liguria » وتعرض المدينة ذاتها لاعتداء المسلمين فى شمالى إفريقية ثم المنافسة من جانب بيزا وهى أقرب منها الى الشرق وأخيرا جنوا لم تنل استقلالها إلا في القرن الحادى عشر (١) (من أمراء اللومبارد فى شمال ايطاليا) .

وقد كان غزو النورمانديين لجزيرة صقلية والضربات العنيفة التى كالتها بيزا وجنوا للعرب وبخاصة الحملة الكبرى على تونس عام ١٠٨٧ (٢) من العوامل المؤدية الى تطهير الطريق الى الشرق وتأمين الملاحة وبذلك أصبح فى استطاعة سفن جنوه أن تشق طريقها فى بوغاز مسينا الى سواحل مصر والشام وقد عرفت المدينة كيف تستغل هذه الظروف الى الحد الأقصى فتعمل على تنمية تجارتها مع الفاطميين المسيطرين على طرق وصول الغلات الشرقية . ومما أعانها على بلوغ هذه الغاية أنها لم تكن مرتبطة بالدولة البيزنطية ذلك الارتباط الذى يضطرها الى مجاراة السياسة البيزنطية وبذا أصبح لها مطلق الحرية في اتباع سياسة تجارية مع مصر تتفق ومصلحتها الذاتية فقط دون اقامة وزن لأى اعتبارات أخرى .

والواقع أن اتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر وجنوا يبدأ فى القرن الحادى عشر أو على الأصح في نصفه الأخير وذلك طبعى بعد أن أتاح لجنوا استقلالها احتمالات كبرى بشأن المستقبل . والوثائق التى كشف عنها تؤيد هذا الرأى فنعلم أن أمير سالرنو (١٠٥٢ — ٧٧) استولى على عدد من المراكب الجنوية أثناء مرورها على مقربة من بلاده مما يدل دلالة ظاهرة على أنها كانت تعتزم اختراق مضيق مسينا

---

(١) Landra: Corse di Storia del Commercio Parta Prima p. 87.
Newbigin: Nediterranean Lands p. 186.

(٢) راجع ما كتب عن هذه الحملة فى دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الفرنسية) مادة تونس

فى طريقها الى موانى مصر والشام (١) وان كان لا ينبغى ان نستبعد أن بعضها قد يكون متوجها إلى القسطنطينية . وقد شاهد الحاج Ingulf أسقف Croyland عام ١٠٦٣م اسطولا جنويا فى ثغر يافا (٢) عاد عليه بعد أداء الفريضة فى الأماكن المقدسة . وقبل أن يرجع الى أوربا مر خلال الديار المصرية وأقام بالقاهرة حيث تمكن أن يعقد معاهدة تجارية مع الخليفة الفاطمى إذ ذاك (٣) ولم يحدثنا صاحب هذه العبارة التى اقتبسناها لصالح من كان عقد المعاهدة . نستبعد أن يكون الغرض منها توطيد علاقات تجارية بين مصر وانجلترا إذ كانت البلاد الأخيرة فى حالة اضطراب داخلى توشك أن تهب عليها عاصفة الغزو النورماندى على يد وليم الثانى . ولذا فالمعقول أنه تولى عقد هذه المعاهدة لصالح جنوا وبالنيابة عنها .

وقد أبحر Goedfroy of Bouillon (٤) عام ١٠٩٤ (أو ١٠٩٥م) مع Count of Flanders وسواه الى الاسكندرية ورجعوا جميعا منها على ظهر السفينة الجنوية La Pomella (٥) ويبدو أن الحرب الصليبية الأولى كانت سببا فى ازدياد العلاقات التجارية كما يستنتج من فحوى بعض الوثائق فى دار المحفوظات بجنوا وهى خاصة بالفترة بين عامى ١١٥٥ ، ١١٦٤ م . فقد وجدوا أوراقا ذات أحرف عربية ، وفى كتاب صادر من البلاط الفاطمى نعلم أن الخليفة الفائز (٥٤٩ – ٥٥٥ هـ = ١١٥٤ – ١١٦٠ م) أو خلفه العاضد قد منح حمايته لأهل مدينة مسيحية (٦) ولا شك أن المقصود بها جنوا . وفى كتاب آخر ذكر اسم الاسكندرية ستين مرة على ما يقول Heyd (٧) وستا وستين حسب Beazley (٨) . ونجد فى الوثائق أسماء سلع كالفقم والفلفل وجوز

---

(١) Heyd: Histoire du Commeree Tome I p. 124.

(٢) Ibid

(٣) Beazley; Dawn of Modern Geography vol II, p. 421.

(٤) و (٥) Heyd: Histoire du Commerce Tome 1 p. 124.

(٦) المصدر السابق ص ٣٩١ – لم تذكر المصادر التى اعتمدنا عليها صورة الخطاب، كما لم نعثر عليه فى المصادر العربية .

(٧) و (٨) Beazley: opt, cit, p 423.

الطيب والقرنفل(١) وهى من غلات آسيا الشرقية ومن الجائز أن أهل جنوا حصلوا عليها من موانى الشام ولكنا نجد معها أسماء مواد مصرية وهى الشب والنطرون(٢) مما احتفظت حكومة الفاطميين لنفسها بحق بيعه لتجار الروم (٣). أضف الى هذا أنه كان لأهل هذه المدينة جاليـة بالاسكندرية ويدل على ذلك خطاب مرسل من تاجر مقيم بالاسكندرية الى أخ له ينبئه باعتزامه الرحيل الى القسطنطينية .

ولم يقف نشاط التجار الجنويين على شراء الغلات الشرقية من مصر لسد حاجة الأوربيين بل كانوا يستخدمونها وسيلة للتبادل مع شمالى إفريقية ويحصلون مقابلها على غلات هذه الجهات (٤)

العلاقات مع بيزا

يظهر أن بيزا كانت أولى المدن الايطالية فى امتلاك قوة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط لما أهميتها فقد طلب اليها أوتو الثانى (٥) عام ٩٨٠ م أن تمده بالسفن اللازمة لحرب اشتبك فيهـا . وفى عام ١٠٠٣ م أوقعت الهزيمة بالمسلمين عند Civita Vecchia (٦) وتلا ذلك انتصار آخر عند Reggio عام ١٠٠٦ م وفى عام ١٠٧٦ م وجهت حملتهـا الكبرى على تونس (٧) كما تعاونت مع جنوا على استخلاص جزيرة كورسيكا من أيدى المسلمين .

ولا نزاع أن هذه الأعمال كلها كفلت لها تجارة رائجة بحيث يمكن القول أنهـا سيطرت منذ بداية القرن الثانى عشر على كل تجارة القسم الغربى من البحر الأبيض

---

(١) Heyd: opt cit

(٢) Ibid p. 390.
Beazley: Dawn of Modern Geography Vol, II, p. 423.

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٩
ابن مماتى : قوانين الدواوين (مطبوع) ص ٢٣

(٤) Mas Latrie: Documents p. 211.

(٥و٦و٧) B. Duffa: Tuscan Republics p. 13.

المتوسط(١). وأكثر من هذا فقد كان التجار المسلمون يغشون ميناءها منذ القرن الحادى عشر الميلادى ويؤيد ذلك الرأى أن الراهب Donizone (١٠٧٦ م) صب جام غضبه وتقمته على المدينة التى سمحت ـ وهى المستودع الجليل والنهر الحرالهام فى العالم المسيحى ـ أن يدنس أرضها الكفار من أهل الشرق وإفريقية(٢) وكانت السفن المصرية نفسها تذهب الى هناك فقد رأى بعضا منها الأسقف نيقولا الأيسلندى وهو فى طريقه للحج الى روما وبيت المقدس عام ١١٥٠ م (٣)

وكانت بيزا تحرص أشد الحرص على الاحتفاظ بود الخلفاء الفاطميين ولذا أرسلت عام ١١٥٤ م سفيرا يدعى Ranieri Botachi الى بلاط الخليفة الظافر لتسوية بعض المشاكل الناشئة من اعتداء بعض اركاب البيزيين فى سفينة على زملائهم المسلمين بالقتل والسلب (٤) ولا شك أن اهتمام المدينة بارسال هذا المندوب فوق العادة الذى وصل الاسكندرية على ظهر « مركب حربية » (٥) دليل واضح على قوة العلاقات التجارية بين البلدين واهتمام بيزا بالمحافظة عليها . ومن المعقول أن الحكومة الفاطمية ثارت لرعاياها المصريين بمعاقبة التجار البيزيين المقيمين بالقطر المصرى (٦)ونحدثنا هايد كذلك أن وصول السفير على ظهر السفينة الحربية أثار دهشة الدوائر المصرية(٧) فكأن هذا كان أول حادث من نوعه وكأنما جرت العادة أن يحصر المندوبون الأجانب إلى مصر على ظهر السفن التجارية . وهنا نرى أن الدهشة ناجمة عن الطريقة التى وصل بها مبعوث حكومة بيزا تحيط به هذه المظاهر الرسمية ونعتقد أن حكومته لجأت الى هذا حتى تزيد من الطابع الرسمى لهذه السفارة الأمر الذى يتم بجلاء عن مبلغ قلقها من تصرف الحكومة الفاطمية وخوفها على مستقبل

---

(١) B. Duffa: Tuscan Republics p. 16.

(٢) Ibid p. 20.

(٣) Beazley. Dawn of Modern Geography. Vol. II. p. 431.

(٤و٥) Heyd. Histoire du Commerce Tome I, pp 392-3

(٦) هذا يدل على أن القانون الدولى لم يكن قد ظهر بوضوح فى ذلك العصر لأن هذا القانون فى الحقيقة وليد القرون الثلاثة الأخيرة

(٧) Heyd. Histoire du Commerce, Tome, I . p. 392.

تجارتها . وبعبارة أخرى نرى أن هذه الحكومة كانت تعلق أهمية كبرى على تلك السفارة ولا نقول إنها قصدت من ذلك القيام بمظاهرة حربية لتؤثر فى نفوس الحكومة المصرية فى ذلك العهد إذ لا نعتقد أن بيزا كانت تفكر فى عمل عدائى بدليل رضوخها للشروط التى فرضت عليها . وقد استطاع السفير تصفية الحادث والوصول الى تسوية مرضية أهم بنودها :

(١) تعهدت حكومة بيزا بالعمل على الاقتصاص من المعتدين .

(٢) تعهدت كذلك أن تمتنع عن تقديم أية مساعدة للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر .

وهذا ينم عن اهتمام الفاطميين بألا تشترك الأساطيل الايطالية القوية فى أى اعتداء عليهم وهم قد جربوا أثر اشتراك تلك الأساطيل فى الحرب الصليبية ومساعدتها فى حصار موانى الشام ولا شك أن رضوخ بيزا لهذا الشرط اعتراف ضمنى باتساع تجارتها مع مصر حتى فضلتها على معاونة زملائها فى الدين والجنس .

(٣) اطلاق سراح خمسة وعشرين من رعايا المدينة الايطالية كانوا قد أودعوا السجن على أثر الحادث وقد عادوا إلى وطنهم مع السفير الأمر الذى يثبت وجود جالية بيزية فى الديار المصرية .

(٤) تعهدت الحكومة الفاطمية بمنح حمايتها للتجار والحجاج الذين يسافرون فى حالة سلمية ويحرم من هذا الامتياز القرصان وكل من يسافر فى مركب حربية(١).

وفى خطاب صادر من والى الاسكندرية تنويه بما كان أهل بيزا يتمتعون به من امتيازات كبيرة أهمها ما تعلق بالرسم المفروضة علي المتاجر(٢) بل إنهم توغلوا فى داخلية البلاد ولم يقتصر نشاطهم على الموانى كما يستدل من الامتيازات التى منحهم اياها الخليفة العاضد فى الاسكندرية والقاهرة(٣) .

---

(١) Ibid pp. 393-4

(٢) ولا تلقى المصادر ضوءا على شخصية هذا الوالى Ibid. p. 394.

(٣) Ibid, p. 396.

ويبدو أن ارسال السفارات إلى مصر كان أمرا عاديا القصد منه توطيد العلاقات ولذا عندما تولى طلائع بن رزيك الوزارة سارعت حكومة بيزا بارسال وفد لتقديم التهانى اليه فأكرمهم وأحسن استقبالهم ووعد بتقديم الحماية الكافية لمواطنيهم(١).

ولما بدأت الحرب الصليبية الأولى ونجح الأوربيون فى توطيد أقدامهم بالشام وفلسطين أخذت بيزا تلعب دورا مزدوجاً سداه ولحمته الخداع، فمن جهة تريد الانتفاع إلى الحد الأقصى من الامتيازات السخية التى كان الأمراء اللاتين يمنحونها للتجار الغربيين ومن جهة أخرى تريد الاحتفاظ بتجارتها النشيطة مع مصر. وقد كان من المتعذر التوفيق بين الغرضين اذ كان إصدار الحديد والأخشاب مما يزيد فى قوة الفاطميين الحربية وفى مقدرتهم على مقاومه الضغط الصليبي كما كانت الولايات اللاتينية بالشرق فى أشد الحاجة إلى عون الأساطيل الايطالية وفى مقدمتها أسطول بيزا القوى فى المحاولات المتكررة لغزو الديار المصرية. أضف إلى هذا أن بيزا كانت ولا شك ترحب بنجاح هذه المحاولات إذ معناها الحصول على امتيازات كبيرة فى مصر لا تمنحها الحكومة الفاطمية الاسلامية للرعايا الغربيين والتجار المسيحيين. وتتضح سياسة بيزا المزدوجة ذات الوجهين من موافقتها فى المعاهدة التى عقدتها مع ملك بيت المقدس عام ١١٥٤ على احتفاظه بحق مصادرة كل ما ينقل إلى مصر من الحديد وأخشاب البناء والقطران (٢) وفى السنة نفسها تعهد رسولها لحكومة القاهرة ألا تقدم المدينة أية مساعدة للصليبيين(٣). ولما أخذ الملك أمورى يهدد الفاطميين فى مصر تقدمت بيزا بالمساعدة ووعدها الملك بامتيازات كبيرة فى القطر المصرى(٤)

---

(١) و(٢) Ibid, p. 395.

(٣) Beazley, Dawn of Modern Geography, Yol II, p. 430.

(٤) Depping. Histoire du Commerce entre LeLevant et L'Europe, Tome II, n. 77, وفيما يلى النص اللاتينى نقله المؤلف عن موراتورى

« Dons, concedo et confirms communitati Pisanorum libertatum de omni jure negotiationés per totam terram quam niehi Deus dederit in Agypts, et curiam in Babyloniâ te ecclesiam & c. »

وفعلا وفت بوعدها واشترك أسطولها فى حصار الاسكندرية(١) . ولما بدا لهـا عدم احتمال نجاح مشروع الغزو واستعد الفريقان المختصمان للاتفاق سارعت إلى الوساطة بينهما وأفادها عملها هذا إذ منحها الخليفة العاضد امتيازات تجارية هامة (٢) ولـكنها لم تلبث أن قلبت ظهر المجن لمصر واشتركت عام ١١٧٩ م فى الهجوم على ثغر دمياط ولـكنه انتهى بالاخفاق . ولما استقر الأمر لصـلاح الدين الأيوبي لم تتـوان عن الدخول فى مفاوضات معه انتهت بعقد معاهدة جديدة عام ١١٧٣م ولما تنقض سنوات على موت معاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

العلاقات مع البندقية

بعد أن شرح لاندرا Landra الأدوار التى مر فيها تطور البندقية التاريخى وازدياد نشاطها التجارى مع إيطاليا وبيزنط وسائر الأقاليم المطلة على بحر الادرياتيك فى القرن العاشر الميلادى قال عن أهلها إنهم «نجحوا في إنشاء علاقات تجارية واسعة النطاق مع المسلمين فى الشام ومصر وشمالى إفريقية» (٣). وإن نقل رفات سان ماركو عام ٨٢٩ م دليل على وجود العلاقات مع مصر منذ القرن التاسع . وكثيراً ما كان إصدار الخشب من كرواتيا والحديد من كارنثيا سبباً فى شكوى الأباطرة البيزنطيين حتى اضطر الدوج إلى إصدار مرسوم يحرم على مواطنيه نقل هذه المواد(٤). وحدث أن أحد مراقبى الجمارك فى البندقية شاهد سفينة محملة بهذه المواد فاشتبه أن وجهتها مصر فأتى بربانها وبحارتها وأخذ عليهم تعهداً بطاعة أوامر الجمهورية (٥) ويبدو أن هذه الأوامر الصـادرة ارضاء للصداقة البيزنطية لم تـكن ذات قيمة عملية ولم يتقيد بهـا

---

(١) Stanley Lane-Poole. Egypt in the Middle Ages, p. 182.

(٢) Heyd. Histoire du Commerce, Tome I. p. 396.

(٣) Cosre di Storia de Commercio, Parta Prima, p. 85.

(٤) Depping: Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe Tome I, p. 195.
Newbigin Mediderranean Lands, pp. 188-9.

(٥) Malmonti: Histoire de Venise, p. 69.

البندقة إذ أدركوا أن الطاعة العمياء لبيزنطة فيها القضاء على مصالحهم التجارية فعادوا إلى نقل المواد المحرمة إلى مصر مما دعا الامبراطور John Zimisces (١) إلى رفع عقيرته بالشكوى (٢) والتلويح بالانتقام من الجمهورية فأصدرت الحكومة أمراً جديداً يمنع إصدار الأخشاب اللازمة لبناء السفن وقد كان لهذا القرار أثر بالغ فى مصر (٣). إلا أن الحكومة البندقية أجازت لتجارها نقل خشب اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام فى عرض نصف قدم كما صرحت لهم ببيع الأدوات المصنوعة من الخشب (٤) .

ومع هذا كله لم تحرص الحكومة الجمهورية على التقيد بهذه السياسة التى تؤدي إلى تضحية مصالحها إرضاء للامبراطورية الشرقية وعمل رؤساؤها على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ولذا أرسل Pietro Orsoolo (٩٩٠ — ١٠٠٩) بعثات إلى بلاد المسلمين عام ١٠٠٠ م حصلت على امتيازات واضحة للسفن البندقية (٥) ونجحت فى إقامة علاقات ودية مع أمراء المسلمين فى عهده . ولاريب أن مصر كانت من أولى دول الاسلام التى توجهت إليها البعثات لوقوعها على الطريق الأقرب إليها وهى طريق البحر الأحمر ودلتا النيل لنقل الغلات الأسيوية ولارتباطها بالبندقية بعلاقات تعود إلى القرن التاسع .

ومما تجدر ملاحظته كذلك أن البندقية لعبت ذلك الدور المزدوج الذى أشرنا إليه بصدد بيزا ففى الوقت الذي حرصت فيه على توطيد علاقاتها مع مصر وتنمية تجارتها فيها نراها — لقاء ما تأمل نيله من امتيازات — تساعد مملكة بيت المقدس بمهاجمة الأسطول المصرى عند عسقلان (٦) .

---

(١) حكم من ٩٦٩م الى ٩٧٦. Cambridge Medieval History, Vol, IV, p. 113.

(٢) Heyd: Histoire de Commerce, Tome I, p. 113.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق ص ١٧٨

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٣ ص ٣٦٤ .

(٥) Mas Latrie. Documents . . ., p. 12.
Beazley. Dawn of Modern Geography, Vol. II, p. 404.
Romanin: La Storia Documentata di Venizia, II. p. 269.
Heyd. Histoire dn Commerce, Tome, I, p. 114.

(٦) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 411.

العلاقات مع الدولة البيزنطية

تأثرت العلاقات بين مصر وبيزنطة بكثير من الاعتبارات السياسية والاقتصادية ونقصد بالسياسية الحروب التى نشبت بين الدولتين فى البر والبحر . ففى عام ٩٦٥ م انتصر البيزنطيون علي الأسطول المصري عند قبرص ثم نشب الصراع فى شمال الشام وأخيرا عقد الصلح بين المعز لدين الله والامبراطور نيقفور فوكاس عام ٩٦٧ م(١) ولكن تجدد النزاع فى عهد الخليفة العزيز بالله الذى أعد أسطولا للخروج إلى الشام وما لبث الأمر أن انتهى بالصلح ثانية عام ٣٧٧هـ . إلا أن الضغط الشديد الذى تعرض له النصارى فى مصر والشام على يد الخليفة الحاكم بأمر الله وماصحبه من هدم كنائسهم وأديرتهم أثار ضمير العالم المسيحي ولذا منع ملك الروم السفر إلى مصر سنة ٤٠٦ هـ وحرم المتاجرة معها (٢) وهكذا انقطعت سبل الاتصال التجارى مؤقتا بين البلدين . فلما ولى الخلافة الظاهر لإعزاز دين الله دارت المفاوضات لعقد صلح بين الطرفين فاشترط الامبراطور :

(١) أن يقوم بتعمير كنيسة القيامة فى بيت المقدس من ماله وكذلك يصرح بنفس الشيء للنصارى فى جميع أملاك الظاهر .

(٢) ألا يتعرض الخليفة الفاطمى لحلب بسوء .

(٣) ألا يساعد الظاهر صاحب صقلية فى حربه ضد الروم .

وقبل الظاهر الشرطين الأول والثالث وأبى الموافقة علي الثانى فتوقفت المفاوضات ثم استؤنفت في أيام الامبراطور رومانوس وفى عهد ميخائيل من بعده(٣). ولم تكن الحكومة البيزنطية لتقف عند حد قطع علاقاتها المباشرة مع مصر بسبب الخلافات السياسية بل كانت تستغل صداقتها مع المدن الايطالية وسلاح الامتيازات الممنوحة لتجارها لحمل تلك المدن على احتذاء هذه السياسة ، بل وصل الأمر بالامبراطور

---

(١) راجع الجزء الرابع من تاريخ كمبردج عن العصور الوسطى من الصراع مع المسلمين صحيفة ١٤٥ وما بعدها

(٢) يحيي بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢١٤

(٣) شرحه ص ٢٧٠ — ٢٧١

John Zimisces عام ٩٧١ م أن يهدد بافتناص السفن المصرية واحراقها إذا كانت تهرب الأخشاب والأسلحة إلى مصر (١)

أما عن الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت القسطنطينية فى موقع جغرافى هام فهى على الطرق التى تربط قارتى آسيا وأوربا مما جعل من السهل أن تصل إليها السلع من وسط آسيا وشرقها بالطريق البرى فهى اذن لم تكن بحيث تعتمد على مصر أو الشام لتزويدها بهذه المواد . أضف إلى هذا أن الحكومة الامبراطورية لم تكن تشجع الاتجار كثيرا وكانت تطبق مبادىء الاحتكار (٢) ولا ريب أن هذه العوامل مجتمعة ما كانت لتساعد على جعل التجارة بين مصر وبيزنطة واسعة النطاق .

وبرغم المنازعات السياسية لم تتوقف العلاقات التجارية إذ كانت بيزنطة فى حاجة إلى بعض المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مصانع تنيس ودمياط وكثيرا ما اشتراها الأباطرة فى القرنين التاسع والعاشر لتزيين قصورهم (٣) ولا نعتقد هذه الحال تغيرت فى القرون التالية إذ لم يصل إنتاج مصانع بيزنطة إلى المنزلة التى اشتهرت بها مصر . ويظهر أن المنسوجات المصرية الفاخرة تمتعت برواج عظيم فى الامبراطورية حتى أن ناصر خسرو سمع أن أحد الأباطرة عرض على السلطان مائة مدينة مقابل تنيس وحدها (٤) وبطبيعة الحال يقصد ناصر من عبارة « السلطان » الخليفة الفاطمى .

أما مصر فكان يهمها ابقاء الاتصال مع بيزنطة حتى تحصل على الفراء وغيرها من علات الروسيا والجهات الواقعة بجوار البحر الأسود كما كان من صالحها أن تكون على علاقات ودية بالبيزنطيين أعداء الدولة العباسية التقليديين . وقد حدثنا ناصر خسرو أن كثيرا من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كان معظمها يأتى من بلاد الروم(٥) . وبسبب وباء وغلاء سنة ٤٤٦هـ استعان المستنصر بصاحب

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce, Tome I. p. 113.

(٢) Camdridge Medieval History, vol. IV , p. 701. etc,

(٣) Heyd. Histoire du Commerce, Tome I, p. 58.

(٤) Sefer Nemeh, p. III. هذه مجرد رواية سمعها من الأهالى ويقصدون بها بالطبع بيان أهمية المدينة

(٥) Ibid p 116

قسطنطينية ليحمل اليه الغلال فأطلق له . . . ر . . ٤ أردب ولكنه مات قبل ورودها وتولت بعده « امرأة طلبت من المستنصر المساعدة إن قام عليها أحد فلم يجبها فعاقت عنه الغلال »(١) اذ لم يشأ اليازورى أن يرتبط بمعاهدة هجومية من هذا القبيل . وكان بالفسطاط حى للروم كان أهله من التجار أصحاب الثراء حتى اعتدى عليهم العامة بتهمة احراق الأسطول (٢) وكان اسم الروم يطلق فى العادة على رعايا الدولة البيزنطية (٣) وكثيرا ما سافرت السفن المصرية الى القسطنطينية فقد رأى بنيامين السائح التطيلى بها تجارا من جميع أنحاء العالم مثل « بابل والجزيرة وميديا وفارس ومصر وفلسطين » (٤) ونعتقد بوجود جالية من المسلمين في عاصمة الامبراطورية اذ كان بالبلدة جامع لهم ولغيرهم عن التجار المسلمين الذين يردون اليها . وفى سنة ٤١٨ عقدت الهدنة مع قسطنطين السابع امبراطور الروم الذى أمر بالخطبة للخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله وفى المساجد الأخرى التى فى الدولة البيزنطية (٥) وكانت هناك حركة سفر بين الدولتين كما يستدل من قول « مان Mann » إن امرأة يهودية أرادت العودة إلى مصر ولكنها فى خوف من أخطار الطريق (٦)

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦ — ٧

(٢) يحي بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٧٨

(٣) تتكلم المصادر العربية عن الامبراطور باسم ملك أو متملك الروم وتصف رعايا الدولة البيزنطية بالروم كما يتضح من مراجعة أخبار الحروب بين المسلمين والدولة الرومانية الشرقية (راجع البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٩ و ١٢١ و ١٢٥ و ١٤٠) وجاء فى الخطط للمقريزى « وكان الخليفة — الفاطمى — انفذ الى متملك الروم فى طلب عمودين للفسطاط » (جـ ١ ص ٤١٩) وكذلك « فى سنة ٤١٨ وقعت الهدنة مع صاحب الروم » (شرحه ص ٣٥٥) ومن رواية ابن سعيد (حاشية رقم ١) نعلم أن العامة نهبوا دور بعض الروم الأغنياء ولا ريب أن هذه الثروة مصدرها التجارة

(٤) Boazley. Dawn of Modern Geography, vol. II p. 122.

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٥

Stanley Lane-Poole Egypt in the Middle Ages, p. 136.

(٦) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, p. 241.

ولما اشتدت وطأة اضطهاد النصاري فى عهد الحاكم بأمرالله أذن لهم فى الخروج إلى بلاد الروم وقد حرصت الحكومة البيزنطية على أن يكون لها مركز ممتاز فى أملاك الدولة الفاطمية وقد جعلها صلح عام ١٠٢١ م مع الخليفة الظاهر فى مركز المدافع عن الكنيسة الشرقية وحاميتها .

العلاقات مع جزر البحر الابيض المتوسط

وأهم هذه الجزر الكبرى التى كان لمصر معها صلات تجارية صقليـــة وقبرص واقريطش وسنعالج كلا منها على حدة .

وكانت العلاقات بين مصر وصقلية قوية فى العصر الفاطمى إذ ظلت الأخيرة خاضعة زمنا طويلا لحكم الفاطميين ولهذا أثره فى سهولة الاتصال التجارى . أضف الى هذا قرب هذه الجزيرة من السواحل المصرية إذ تقع فى أقصى جنوب شبه جزيرة ايطاليا ولهذا كانت نقطة اتصال بين أوربا ومصر ولا بد أن تمر بجوارها السفن المسافرة من مصر إلى الساحل الغربى لايطاليا وإلى جنوب فرنسا وايبريا .وكان لدى هذه الجزيرة ماتصدره إلى مصر إذ تنسج بها الانواع الفاخرة من الاقمشة الحريرية لوفرة انتاج الحرير فيها على عكس الحال فى الديار المصرية . وقد ذكر ناصر خسرو أن السفن تتوجه من موانى مصر إلى هذه الجزيرة وتعود محملة بالمنسوجات وكانت القطعة الواحدة تباع في أسواق مدينة مصر بعشرة دنانير مغربية(٣) . إلا أن انقسام المسلمين فى الجزيرة دفع بالبعض منهم إلى الاستنجاد بالنورمانديين وهؤلاء الاخيرون انتهزوا الفرصة فقضوا على الفرق المتنازعة واستولوا على الجزيرة . إلا أن العلاقات التجارية لم تنقطع وفى منشور أصدره الملك روجر الثاني سنة ١١٣٧م إلى أهل سالرنو

---

(١) The Jews in Egypt and Palestine uuder the Fatimid Caliphs p. 35. (نقلا عن أبى صالح الأرمنى)

(٢) Beazley:Dawn pf Modern Geography, vol. II, p. 122.

(٣) Sefer Nemeh, p. 122.

جزاء على ولائهم له ولاسرته نجده يعد باستخدام ما فى وسعه من نفوذ لدى البلاط الفاطمي حتى تخفض الرسوم التى يدفعونها فى الاسكندرية إلى مستوى الرسوم التي كان التجار الصقليون يدفعونها(١) . وهذا يدل على أن العلاقات بين مصر وصقلية كانت ودية برغم خضوع الأخيرة لحكم المسيحيين ولذا عومل التجار الصقليون معاملة ممتازة بالقياس إلى غيرهم من التجار الغربيين. وبعد بضع سنوات من هذا الوعد عقد روجر معاهدة مع الخليفة الفاطمى(٢) ولكن مالبث الصقليون أن هاجموا سواحل مصر(٣) إلا أن هذا العمل لم يؤثر على مايبدو فى استئناف العلاقات الودية بين الدولتين(٤). ويخيل الينا أن الحكومة الفاطمية كانت حريصة على بقاء صلات الصداقة لأسباب اقتصادية وكذلك لاسباب سياسية بمعنى أنها تقدر قوة النورمانديين ولا تريد أن يكونوا خصوما لها .

وبعد أن استولى البيزنطيون علي قبرص أخذت هذه تفتح موانيها للتجار الغربيين وظلت علاقاتها ببلاد المسلمين قائمة لأن الجزيرة تهيء فرصا كثيرة للتجارة معهم فهى تنتج مقادير كبيرة من السلع التى يحتاجونها كالشمع والعسل (٥). ومما ساعد علي سهولة الاتصال بها أن المسافة التي تفصلها عن موانى مصر الشمالية والشام وتركيا واليونان لاتزيد عن رحلة يوم واحد(٦) ولهذا فمن الميسور أن تخرج اليها السفن المصرية من موانى تنيس ودمياط بصفة خاصة . أضف إلى هذا أن قبرص على الطريق البحرى من مصر إلى سواحل آسيا الصغرى وإلى القسطنطينية .

---

(١) Heyd Histoire du Commerce, Tome,I, p. 391.

(٢) Ibid p. 392

(٣) الاشارة هنا إلى هجوم قام به اسطول من ستين مركبا أرسلها ملك صقلية على دمياط فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٠ هـ ثم نزل الصقليون على تنيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد . ولقد حدث هذا الاعتداء فى خلافة الفائز ووزارة الصالح طلائع بن رزيك (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢١٤)

(٤) Heyd:Histoire du Commerce, Tome I, p. 302.

(٥) Cobhom: Excerpta Cypria, p. 5 (نقلا عن المقدسى)

(٦) Ibid p. 18. (quoted from L. von Sachen. 1350 A. D.)

وكانت اقريطش من أهم جزر بحر ايجه من حيث علاقاتها التجارية مع مصر بسبب وقوعها علي الطريق إلى مصر والشام بالنسبة الى السفن الآتية من بحر الأدرياتيك . أضف إلى هذا أن من أهم منتجاتها الشمع والعسل وهما من المواد التي تحتاج مصر اليها .

العلاقات مع بلاد المغرب وبرقة

كان استيلاء الفاطميين علي مصر ذا أثر كبير في نشاط التجارة بينها وبين بلاد المغرب نتيجة لخضوع الإقليمين إلى سلطة سياسية واحدة وبذا تزداد التسهيلات الممنوحة لتجارهما . وكانت مصر الطريق الذى تصل بواسطته غلات بلاد العرب والحبشة والهند والشرق الأقصى الى شمالى إفريقية بل ان الحجاج المغاربة ظلوا طيلة العهد الفاطمى يسافرون إلى الحجاز بطريق مصر . حقيقة قد لا يختلف هذا عما كان عليه الحال فى العصر السابق للفاطميين الا أن خضوع مصر لهم شجع المغاربة على السفر بطريق مصر حيث يقيم رأس الدولة الشيعية وله أتباع كثيرون فى بلاد المغرب الى حين انفصالها عنه فيما بعد . ولما اضطربت الأحوال فى الشام وفلسطين فى العصر الفاطمى الثانى أصبح طريق مصر أكثر أمنا وأخيرا استولى الصليبيون عليها فصارت مصر السبيل الوحيد الذى يتوجه منه حجاج شمالى إفريقية الى الأماكن المقدسة . ويبدو أن عددهم كان كبيراً حتي اعتبرته الحكومة الفاطمية مصدر ايراد لها ففرضت عليهم المكس يدفعونه فى عيذاب (١).

ولا داعى للافاضة فى بيان أثر مرور الحجاج وقيام العلاقات الثقافية(٢) بين البلدين فى تنمية التجارة بينهما خاصة وأن فى بلاد المغرب غلات كانت مصر فى حاجة اليها . وقد أمدنا البكرى بمعلومات وافرة عما كانت تصدره بلاد المغرب إلى مصر من

---

(١) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٥٥

(٢) ذكر ابن أبي اصيبعة عن التيمى أنه حضر الى مصر فى عصر الفاطميين والتقى بها الأطباء من أهلها وغيرهم ممن وفدوا من المغرب (عيون الأنباء فى أخبار الأطباء ص ٨٧ — ٨٨)

زيت الزيتون والفواكه كما شرح لنا طرق الاتصال المائية بين البلدين ، وحدثنا عن الموانى التى كانت تفد اليها السفن المصرية ومن ذلك المهدية التى كانت مرفأ السفن الآتية من الاسكندرية (١). وقد شاهد ناصرخسرو فى أسواق الفسطاط قطعا من البلور الصخري واردة من اقليم المغرب (٢) .

أما برقة فكان أكثر ذبائح أهل مصر منها (٣) ويحمل منها اليهم الصوف والعسل والقطران . ولم يمض وقت طويل حتى خلع المغرب طاعة الفاطميين ولا بد أن هذا الحادث أثر فى العلاقات التجارية ولكن مالبث أن تلاه الغزو الهلالى لإفريقية في القرن الحادى عشر فقضي على برقة ونشر الفوضى فى بلاد المغرب ودمر الغزاة كالعاصفة الهوجاء الكثير من المراكز الصناعية ومناطق الغابات والاراضى الزراعية . وكان لابد من انقضاء وقت حتى تفيق البلاد من عواقب هذا الهجوم المخرب وتستعيد نشاطها لا مع مصر وحدها بل مع غيرها من البلدان (٤).

ولا يفوتنا أن نذكر أن بلاد المغرب كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة للقطر المصرى اذ أصبحت طريق الاتصال بينه وبين بلاد غانة وحوض السنغال والنيجر حيث تخرج القوافل من سجلماسة ضاربة فى الصحراء نحو الجنوب ، فتعود بالتبر وغيره (٥) .

---

(١) المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ص ٥ و ٣٠ و ٤٧ و ٤٩ و ٨٢

(٢) Sefer Memeh, p 149

(٣) البكرى : المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ص ٥٠ وقد علق آدم متز على هذا بقوله « ولم يذكر استيراد الحيوانات للذبح الا بمصر » (الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٩٣)

(٤) كتب Gautier فصلا قيما عن الغزو الهلالى فى كتابه

Les Siécles obscurs du Magreb

(٥) كان ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى أول من أشار إلى أهمية سجلماسة التى لم يكن ليدخلها أحد الا بطريق الصحراء كما أنه ذكر موقعها قرب مناجم الذهب. وحسب المسعودى والادريسى وياقوت ترجع شهرتها الى تجارة الذهب مع غانة الواقعة على مسيرة شهرين ناحية الجنوب ـ راجع :

E. W. Bovill Caravans of the old Sahara p. 43.

العلاقات مع اسبانيا

ذكر اليهودى Chasdai وزير عبدالرحمن الثالث فى كتابه الى ملك الخزر مانصه « ونرى التجار يفدون بكثرة الى بلادنا من الاقطار الاجنبية والجزر خاصة من مصر وبلاد أبعد منا . وهم يحملون الينا العطور والاحجار الثمينة وأشياء أخرى كثيرة يحتاجها الملوك. وبعبارة أخرى كل منتجات مصر التى نحتاج اليها»(١). ويلاحظ أن هذا الوزير قدشغل نفسه بالحصول على معلومات عن الجاليات اليهودية فى مختلف جهات العالم وقد تلقى تقريرا من مصر من الحاخام(٢)وكانت هذه المراسلات من العوامل البعيدة الاثر فى تنمية العلاقات المالية والتجارية بين طوائف اليهود فى البلدان المختلفة وكان هؤلاء من أكبر المشتغلين بالتجارة كما نعلم من دراسة تاريخهم الطويل .

ولم يؤد قيام الدولة الفاطمية وامتلاكها مصر الى فتور فى العلاقات مع اسبانيا الاسلامية بل لعلها بعد مضى وقت زادت العلاقة قوة ومتانة لأن من مصلحة الفاطميين أن تتوطد الصلات الحسنة مع مع مسلمى اسبانيا إذ يعد الفريقان من الخوارج علي خلافة بغداد ، وليس من ريب أن اتساع نطاق التبادل التجارى من وسائل التفاهم ، بل إن اسبانيا المسلمة ربما قامت بدور الوسيط بين مصر والبلاد المسيحية كالبرتغال وفرنسا وربما انجلترا . ولهذا كان الاتصال بين البلدين الاسلاميين كبيرا(٣) ففى أيام الازمة الكبرى فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى كان تجار الاندلس يأتون بالقمح والشعير من بلادهم ويعودون بالجوهر والياقوت(٤). ولم يقصر تجار مصر فى هذا الميدان بل عبروا البحر الأبيض المتوسط الى شبه جزيرة ايبريا حيث رآهم الرحالة اليودى بنيامين فى مدينة برشلونه على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة(٥) أما العلاقات الثقافية فالدليل عليها أسماء أولئك العلماء الفقهاء ممن زاروا مصر أو أقاموا بها خلال العصر الفاطمى معززين مكرمين وقد أمدنا المقرى فى كتابه «نفح الطيب» بالكثير عنهم وعن حياتهم .

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce Tomel. p. 49.

(٢) Beazley Dawu of Modern Geography vol. II, p. 220.

(٣) Landra Corso del Commercio. p. I. p. 95.

(٤) الاعتباط فى حلى مدينة الفسطاط : ج ٤ ص ١٠٧

(٥) Beazley Dawn of Modern Geography vol. II p. 229.

العلاقات مع الشام والعراق والشرق الأوسط وأرمينية وبلاد العرب

جعلت الظروف الطبيعية بلاد الشام تتم وحدة مصر الاقتصادية ، بل إن بعض الحكام ومن حولهم اعتبر جبال طوروس الحد الشمالى للقطر المصرى ولذا اتجهت سياسة الحكومات التى تعاقبت على مصر منذ الفراعنة إلى امتلاك الشام وربطها بمصر سياسيا واقتصاديا . ولم تشذ سياسة الفاطميين عن هذه القاعدة لما يعود التسلط عليها من مغانم اقتصادية فمن أحراشها ومناجمها يأخذون الأخشاب والحديد . وتلك البلاد فى الوقت نفسه الطريق الطبيعى للاتصال بالعراق والشرق الأوسط وقد كفل قيام الدولة الفاطمية وامتلاكها لمصر والشام انتظام التجارة بين البلدين . وفضلا عن هذا فقد كانت مصر تعرف قيمة بعض المنسوجات الشامية من صناعة بعلبك والأسلحة والأدوات النحاسية وغير ذلك من انتاج دمشق والتى رآها ناصر خسرو بكثرة فى أسواق مدينة الفسطاط

ولم يكن استقرار الفاطميين فى مصر ليؤدى إلى توقف الاتصال مع العراق بسبب الخلاف المذهبى بين خلافتى القاهرة وبغداد . فقد كان المسيطر على السلطة فى بغداد هم بنو بويه الذين نشأ بينهم وبين الفاطميين تفاهم وطيد يقوم على أساس اتحادهم وإياهم فى المذهب الدينى . وقد حدثنا صاحب كتاب « شذرات الذهب » أنه فى عام ٣٦٩ هـ « ورد رسول العزيز صاحب مصر والشام إلى عضد الدولة ثم ورد رسول آخر فأجابه بما مضمونه من صدق الطوية وحسن النية » . وفى عهد المستنصر بالله الخليفة الفاطمى دعا له البساسيرى التركى من فوق منابر بغداد وخيل لسادة القاهرة أن قد حان وقت سيادتهم لعاصمة العالم الاسلامى . ولما حلت المجاعة

---

(١) Sefer Nemeh pp.116, 152.

(٢) الجزء الثالث ص ٦٨

فى عهد المستنصر نفسه هرب الكثيرون من أهل مصر إلى العراق وكان تجاره يأتون إلى مصر لشراء النفائس التى أخرجت من قصر الخليفة وبيعت بأبخس الأثمان بل إن الكثيرين ممن اشتغلوا بتجارة العراق أو اتصلوا بحامليها اقتنوا الثروات الكبيرة (١) . ولا ننسى أيضا أن بعض ما خلفه الوزراء المصريون وما أخرج من قصور الخلفاء الفاطميين من نفائس وطرف كان من إخراج مناسج بغداد(٢). وقد أنشئت الوكالة الآمرية لتجار العراق خاصة(٣)مما يدل على نشاط العلاقات بين البلدين . واتصلت مصر اتصالا مباشرا بآسيا الوسطى فكانت منسوجات الصعيد وأسيوط الصوفية تصدر إلى بلاد فارس حيث عرفت هناك باسم المصرى(٤) . وأقام بعض المصريين ـ وهم من التجار على مانعتقد ـ فى بخارى فقد التقى المقدسى ببعضهم وسألهم عن بلادهم ونظم ملكية الأرض عندهم(٥).

أما أرمينية فقد سكنها شعب امتاز بالنشاط والميل إلى أعمال التجارة وانتشر الكثيرون منهم فى كثير من جهات العالم وكانت لهم فى مصر جالية كبيرة وصحب بدر الجمالى جند كثيف منهم (٦) ، وتزايد نفوذهم وتولوا المناصب الكبيرة حتى انقلب الرأى العام عليهم . ولما استولى الأكراد على البلاد « حلت المصائب بالأرمن ، وطرد بطريقهم ورهبانهم ، وأغلقت كنائسهم » (٧)

ا إن خصب مصر ووفرة إنتاجها الزراعى ، وجدب بلاد العرب مع استثناء

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٢٤

(٢) اشتملت ثروة الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى على تسعين ألف توب عتابى

ا ، ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٧

ب، الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٥٣ وذلك فى صدد الكلام على هدية البساسيرى

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥١

(٤) Nasiri Khosrou Sefer Nemeh p. 173.

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢١٢

(٦) ابن خلدون : تاريخ المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٦٤

(٧) Abu Saleh Churches and Monasteries of Egypt pp 2-3

إقليم اليمن وسهولة الانتقال برا وبحراً بين البلدين ، كل هـذه ظروف طبيعية تجعل اتصالهما أمراً ضروريا أضف إلى هذا أن الحجاز وبه الأماكن المقدسة كان قبلة الكثيرين من المصريين الذين يقومون بأداء فريضة الحج ، وعن طريق عدن وجدة كانت تنقل إلى مصر غلات الهند ، وشرق آسيا خاصة . وأخيراً فقد كان ببلاد العرب ما تعطيه لمصر مقابل منتجاتها ؛ فهنالك البخور من اليمن ، وغير ذلك من المواد التى كان لها سوق رائجة لدى المصريين . وربما ساعد على ازديادها فى العصر الفاطمى الإقبال المتزايد على غلات شبه الجزيرة العربية من العطور وما شابهها ، ثم انتشار الدعوة للفاطميين زمناً فى بلاد العرب حيث ورث هؤلاء الحجاز فيما ورثوا عن الإخشيديين

العلاقات مع النوبة والسودان والحبشة

وكانت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة ودية إلى حد كبير فى العصر الفاطمى ، فقد كان ملوك النوبة يرسلون الهدايا على الدوام إلى الخليفة الفاطمى بمصر ويعقدون المعاهدات بقصد منع اعتداء الجيوش المصرية على بلادهم (١) . ونقرأ فى كتاب تاريخ بطارقة الاسكندرية أن البطريق Christodule أرسل جرجس اسقف Natou إلى ملك النوبة Salmon لتدشين كنيسة أقامها الملك فى بلاده (٢) . وحدث أن أبلغ أحد الناس الوزير بدر الجمالى أن ملك النوبة هدم مسجداً للمسلمين فى بلاده ، فما كان من الوزير إلا أن بعث بالأمير حسام الدولة رسولا ليتحقق من

---

(١) Nasiri Khosrou Sefer Nemeh p. 175.

(٢) Quatremère: Mémoires géographiques et historiques, Tome II, p. 86.

صحة النبأ . وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح كذب الأمر (١) ، ولما ثار الزعيم العربى كنز الدولة فى منطقة أسوان ، والتجأ إلى بلاد النوبة سلمه ملكها إلى السلطات المصرية ، إجابة لطلب بدر الجمالى (٢) ، بل كان ملوك النوبة يطلبون أحياناً وساطة الحكومة المصرية في مسائلهم الدينية ، وعلاقاتهم بالكنيسة القبطية فى مصر ، كما حدث عند ما أرسل الملك « بازيل » وفداً فيه إبنه إلى الوزير بدر الجمالى ، وكان الملك يطمع فى مساعدة الوزير له حتى تعين الكنيسة هذا الابن رئيساً دينيا للنوبة (٣) .

ويبدو أن الفاطميين كانوا يطمعون فى حمل أهل النوبة على اعتناق الاسلام ، وقد حدثت محاولات (بين ٩٧٥ و ٩٩٦ م) من هذا القبيل ، فلم تؤد إلى النتيجة المرجوة ، إلا أن بعض أهل مصر أقام فى شمالى النوبة ، وامتلك الأراضى ؛ وأسلم عدد من النوبيين فى الأراضى الممتدة من أسوان حتى الشلال الثانى (٤) ، وكان الانتقال بين البلدين أمراً مألوفا ، فقد أذن الحاكم بأمر الله فى عهد الاضطهاد الكبير للنصارى بالخروج إلى بلاد النوبة ، واستفاد كثيرون من هذا الترخيص (٥) وهذه العوامل جميعها كانت سبباً في ازدياد العلاقات الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، فقد كان تجار مصر يحملون إلى بلاد النوبة الكثير من أدوات الزينة (٦) ، وكان الرقيق من النوبة موضع تقدير المصريين خلال العصور الوسطى (٧) . وبرغم قلة الوثائق عن مدى العلاقات مع الحبشة فان ما أمددنا به المؤرخون ، والجغرافيون ، والرحالة من معلومات قليلة يدل على نشاط التجارة بين البلدين ، فقد كانت المراكب تأتى إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار حيث تؤخذ عليها

---

(١)، (٢)، (٣) Quatremére Mèmoires Geographiques et Histcriques, Tome. II: pp. 68-90

(٤) Macmichael The Arab Tribes in the Sudan Vol. 1, p. 169.

(٥) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٣٥

(٦) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh p. 116.

(٧) ابن الوردى : جزيرة العجائب ص ٤٣

المكوس (١) ، وكانت مصر تستورد من الحبشة الرقيق ، وجلود الجاموس (٢) وكثيراً ما تبودلت السفارات بين حكام البلدين ، فقد حدثنا المقريزى : أنه لما اعتلى ميخائيل الحبيس عرش البطريركية عام ٤٨٢ هـ أرسله المستنصر بهدية سنية إلى الحبشة ، فتلقاه ملكها وسأله عن سبب قدومه فعرفه نقص النيل فى مصر وضرر أهلها بسبب ذلك ، فأمر الملك في الحال بفتح سد يجرى منه الماء إلى أرض مصر ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع . ولما عاد البطريق خلع عليه المستنصر وأحسن إليه (٣) . ومن المؤكد أن الروابط الدينية التى قامت بين الحبشة المسيحية والكنيسة فى مصر كانت تستدعى تبادل الوفود والسفارات ، مما يؤدى بدوره إلى نمو العلاقات التجارية . وإذا صح السبب الذى ذكره المقريزي لكان أهل مصر فى القرن الخامس الهجرى على علم تام بالرابطة المائية بين بلادهم ومصدر الفيضان . ونعتقد أن هذه السفارة حدثت حين اشتداد المجاعة والوباء ، وأن الغرض منها قد يكون محاولة من جانب الحكومة الفاطمية فى سبيل الحصول على ما يخفف من وطأة هذه الأزمة الشديدة التي كانت البلاد ترزح تحت نيرها ، وليست لدينا أدلة كثيرة تلقى ضوءاً على العلاقات بين مصر والسودان ، ولكنا نعلم أن الحريم الذين رآهم المقدس فى مصر ، وهم أجود الأجناس كانوا من السودان (٤) ، وكان الخليفة العزيز بالله ، يميل إلى الطير والحيوان يأتي بهما من السودان (٥) . ولا شك أن القوافل كانت تتردد بين البلدين وتعود محملة بالسلع كالتبر ومن الفيل ، وغير ذلك كما هو الحال اليوم .

أما غانة فكانت لها مع مصر علاقات من أيام الفراعنة بدليل الآثار التى

---

(١) Ibid p. 178.

(٢) Ibid pp 149-150

(٣) المقريزى : الخطط والآثار جـ ٢ ص ٤٩٦

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٤٢

(٥) Stanley Lane-Poole The Story of Cairo p 134

(٦) Depping Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe Tome I, pp 76-70

كشفت حديثاً بتلك البلاد النائية (١) . وفى أوائل العصر الفاطمى كان هناك طريق مباشر بين مصر وبلاد غانة عبر الصحراء الكبرى ثم أهمل بسبب العواصف الرملية وقطاع الطرق (٢) وقبائل البدو المنتشرة فى تلك المناطق ، فتحول الاتجاه وأصبح الاتصال بين البلدين بطريق بلاد المغرب حيث تتصل سجلماسة اتصالا مباشراً ببلاد غانة (٣) . ولا ريب أن هذا الطريق نفسه كان يستخدمه المسلمون من أهل غانة فى طريقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة فى الحجاز .

العلاقات مع الصين

كانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين وجزر الهند الشرقية . والمعروف أن التجار العرب كانوا يحملون هذه البضائع إلى عدن أو جدة (٤) ومنها تنقل عبر البحر الأحمر إلى القطر المصرى . والذى نود معرفته هو : هل كان التجار من أهل مصر يتوجهون بأنفسهم إلى تلك البلاد النائية ، ترجع صعوبة تحقيق هذا الموضوع إلى أن المصادر العربية لا تذكر سوى عبارة « المسلمون » أو « العرب » كما يستدل فى دراسة أقوال ابن خرداذبه وسليمان الفارسى وابن سراييوم . والأردبيسى وغيرهم (٥) دون أن يحددوا وطن هؤلاء المسلمين . أضف

---

(١) La Roucière Sa Decouverte de l'Afrique au moyen Age, Tome I p 74

(٢) آدم متز : الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣٥٥

(٣) أنظر ما كتب فى هذا الموضوع فى دائرة المعارف الاسلامية « وموقع غانة بين السودان والصحراء جعلها مركزا تجاريا هاما من أقدم العصور ! البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧١ « فى القرن العاشر الميلادى اشتبك ملوك غانة فى حروب مع البربر ولكن ثم لهم النصر أخيرا وأقاموا حاكما من السود هناك وخلال الخمسين سنة التالية ظلت هذه أقوى دولة بالسودان وكانت تتكون من مدينتين فى سهل يسكن احداها المسلمون وبها اثنى عشر مسجدا » دائرة المعارف الاسلامية

(٤) راجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ١٧٠

(٥) Ferrand:Relations des voyages

إلى هذا أن المصادر الصينية التى اعتمد عليها مؤلف كتاب « الاسلام فى بلاد الصين (١) تتكلم عن التجار المسلمين جميعاً بأنهم من العرب . إزاء هذا التعميم لانرى مانعاً من القول سلفاً أن هؤلاء التجار لايقتصر أمرهم علي أهل شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل منهم تجار من مصر وبلاد فارس وغيرها من الشعوب الاسلامية فى غرب آسيا وشمالى إفريقية . يؤيد هذا الرأى ماقاله أبو حامد الأندلسى فى كتابه (تحفة الألباب ص ١٠٦ – ١٠٨) « كنت بمصر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة من الهجرة ، واجتمعت فيها بالشيخ ابن العباس الحجازى . وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة فحدثنى عنها وعن عجائبها . . . وعن الدبس الذى إذا دهنوا به جرحاً زال ألمه . فقلت له : لما ذا لم يأت شيء منه . فقال جئت بكثير ولكنه ذهب فى جملة من أموالى ذهبت فى بحر الصين والهند إلى أن وصلت إلى بحر القلزم عشر سفن وإنما بقى معى سفينة صغيرة . وقد أهدي إلى الأفضل قطعة عود هندى وزنتها خمسون منا وأهدى من قصاع الصين وأوانيها ما يشبه الياقوت حسناً من الجنس المخرم » ولا شك أن أبا العباس هذا ليس إلا واحداً من الكثيرين من أهل مصر (٢) تاجروا مع الهند والصين ؛ وأقام بعضهم بها طويلا . حتي إذا ما جمع ثروة كافية هزه الحنين إلى الوطن فعاد إلى بلاده .

وقد ذكر Chau- Ju-Kua مراقب الجمارك فى مدينة كانتون الواقعة علي الساحل الشرقى لبلاد الصين معلومات لا تنطبق إلا على مصر . فقال : « ويعيش الناس » (أى في البلاد التي يتكلم عليها) على الخبز واللحم . ولا يأ كلون الأرز ويسود الطقس الجاف . وإذا نزل المطر أتلف الزرع ... وتوجد بهذه البلاد مدينة

---

(١) P Darby de Thiersaut Le Mahometisme en Chine Toue I p 60 etc

(٢) قد يعترض على هذا بأن اسم الرجل نفسه يدل على أنه ليس من أهل مصر والذى نراه فى هذا الصدد أن الرجل من أفراد تلك الأسر العربية التى نزحت الى مصر واستوطنت مدنها وريفها واشتغل أفرادها بمختلف المهن من زراعة وصناعة وتجارة وبرغم اقامتها بمصر احتفظت بألقابها ! وحتى اليوم نجد عشرات الأمثلة على صحة مانقول

Lirèyé يرى المترجم أنها (القاهرة) على شاطىء النهر (١) . وقد تكلم أيضا على مدينة بناها أجنبي وسرقت منارتها بحيلة (٢). ولا شك أنه يقصد مدينة الاسكندرية وكانت شهرة منارتها قد عمت الآفاق . هذه العبارة التى اقتبسناها من مؤلف الكاتب الصينى تؤيد وجود علاقات مباشرة بين بلاده ومصر إذ الأقرب إلى المعقول أن الرجل وهو فى مركز رسمى له أهميته . كان يجتهد دائما فى الحصول على معلومات عن البلاد التى لها علاقات تجارية مع أمته من قوم ينتمون إلى هذه البلاد فعلا ، وتلك كانت عادة شائعة فى بلاد الصين (٣) . إذ يكلف رجال الدولة بسؤال الواردين من الأجانب عن المعلومات عن أوطانهم . فكأن شاو يوكوا حصل على المعلومات ، التى أوردها فى كتابه من تجار مصريين : إما من المقيمين فى كانتون بصفة دائمة ، واما من المترددين عليها بين حين وآخر لحمل منتجات البلاد الصينية .

---

(١) Chau-Ju-Kua: Chinese Trade (Translated by Hirth and Rockhitl p, 124,

(٢) Ibid p 146

(٣) يلاحظ أن نفس الشيء كان يحدث فى غير بلاد الصين ويتضح ذلك مما حدث مع أحمد بن حسان رفيق ابن جبير عند نزولهما ثغر الاسكندرية (راجع كتاب الرحلة ص ٣٩ وما بعدها)

أثر الحروب الصليبية على التجارة في مصر

في عام ١٠٩٦ بدأت الحرب الصليبية الأولى ولم ينقض عامان حتي سقطت مدن الرها وأنطاكية . وفي سنة ١٠٩٩ استولى الصليبيون على بيت المقدس وتابعوا بعد ذلك فتوحهم حتى دانت فلسطين والشام لسلطانهم ، وكانت أساطيل المدن الايطالية من العوامل الفعالة في سقوط البلاد الساحلية .

ولا ريب أن هذا الحادث العظيم قد أحدث اضطراباً بالغاً وأدى في أول الأمر الى توقف العلاقات التجارية بين مصر والشام والعراق من جهة ، وبين مصر وأوربا من جهة أخرى .

فالطريق البرى الى دمشق والى الحجاز أصبح استخدامه محفوفاً بأعظم المخاطر التي تجعل من السير فيه مجازفة ، وذلك لما كان يقوم به صاحب الكرك المسيحى من مهاجمة قوافل المسلمين . وكذلك كان طريق الساحل من الموانئ المصرية الى عسقلان ، آخر معقل في أيدى الفاطميين قبل سقوطه تحت رحمة الصليبيين وأساطيلهم التى تتربص لسفن المصريين . أضف إلى ذلك أن الاعتداء المسيحى علي الشرق لا بد أنه كان له صدى ودوى عظيم في الرأى العام المصرى ؛ وفي سياسة الفاطميين إزاء التجار الغربيين . بل ان الشعوب المسيحية في أوربا لا بد أن ثار ضميرها على أى اتصال بمصر تحصل بواسطته على ما يلزمها من مواد الحرب ، كالحديد والأخشاب الأمر الذي يساعد على ازدياد قوتها . ومما يدل على صحة هذا القول المراسيم التى أصدرها حاكم البندقية الدوج بيتروزيانى Pietro Ziani عام ١١٢٦ ، وقناصل جنوه عام ١١٥١ م بتحريم الاتجار مع القطر المصرى .

ذكرنا من قبل أن غلات آسيا الوسطى والشرقية كانت تصل إلى غرب

آسيا ومصر وجنوبي أوربا بطرق مختلفة ، وأوضحنا إلى أى حد كان طريق البحر الأحمر والنيل الطريق المفضل ، اذ هو على الأقل يمتاز بقلة التكاليف نسبيا . الا أن استقرار الأوربيين فى بلاد الشام فتح بلا ريب موانيها للتجار الغربيين وأصبحت الشام منافساً كبير الشأن لطريق مصر الذى كان الصليبيون يسعون الى اهمال شأنه ، خاصة وقد أخذوا يمنحون التجار الأوروبيين فى ايطاليا وفرنسا وغيرهما امتيازات سخية كلها اغراء ، كالاعفاء التام فى بعض الأحيان من الرسوم الجمركية (١) ، وحرية الاتجار المطلقة (٢) ، والحق فى اقامة ما يشاءون من حوانيت ومساكن . مثل هذه المزايا ما كان في استطاعة الأوربيين الحصول عليها من الخلفاء الفاطميين الأمر الذى كان يؤذن بتفضيل هؤلاء التجار استخدام طريق الشام مما يهدد تجارة مصر الخارجية ورخائها بأعظم الأخطار .

وقد أثرت الحرب الصليبية الأولى على طرق المواصلات بمصر . فامتلاك المسيحيين لحصن الكرك قطع طريق الحج والتجارة البرى فاضطر التجار والحجاج الى البحث عن طريق آخر أكثر أمناً . فانتقل النشاط التجارى الى النيل الأوسط والأعلى فى مصر وأصبح التجار والحجاج يتوجهون فى النيل حتى قوص أو أسوان ثم يعبرون الصحراء الشرقية الى عيذاب ومنها يبحرون في البحر الأحمر إلى جدة . والواقع أن هذه الطريق أخذت تزداد أهمية حتى أصبح الطريق الرئيسى . وأكبر شاهد على ذلك أوصاف الأدريسى وابن جبير عما شاهداه من حركة تجارية قوية فى ميناء عيذاب الصغير . وهكذا حدث تعديل فى وسائل انتقال المتاجر فى مصر واستمر هذا الطريق الجنوبى محتفظا بقوته وأهميته حتى القرن الرابع عشر الميلادى .

إلا أن نار التعصب التى أثارها هجوم المسيحية على الاسلام ما لبثت أن أخذت فى الخمود وأدرك الفريقان أن العامل الاقتصادى أقوى أثراً من العاطفة الدينية فاستؤنف الاتصال التجارى بين مصر وأوربا ، بل زاد قوة عما كان عليه ودخلت

---

(١) Depping:Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe Tome tl p 70

(٢) lbid p 74

دول أوربية أخرى فى الميدان لم تكن لها من قبل أية علاقات بمصر . وحتى الصليبيون فى فلسطين أخذوا يسمحون بمرور القوافل من مصر إلى الشام والعراق لما يعود عليهم هذا العمل من فائدة مالية محققة بسبب الرسوم التى يفرضونها على المتاجر التى تمر بالأراضي الخاضعة لسلطانهم . وكذلك أخذت المراكب تسير الى الشام ، فقد روى أبو شامة فى حوادث سنة ٥٦٧ هـ « خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الافرنج فى اللاذقية مركبين مملوءتين بالأمتعة ، وكان نور الدين قد هادنهم »(١) .

أما التجارة مع أوربا فاتسع نطاقها وكثر ورود سفنها إلى الاسكندرية وزادت الاتفاقات بين الحكومة الفاطمية والأجانب لتسوية كثير من المشاكل وتنظيم العلاقات على قواعد مقررة . وأصبحت الاسكندرية مستودع العالمين ، وقد راعت حركتها الكبيرة الرحالة اليهودى التطيلى فحدثنا أنه شاهد فى مينائها سفناً عدة تنتمى إلى تسع وعشرين دولة ومدينة أوربية مثل « تسكانيا وأبوليا واماليفى وصقلية وبلنسيه وأسبانيا وقطلونيا وروسيا وألمانيا وإنجلترا والدنمرك وبرغنديه وجنوه وبروفانس وبيزا وغسقونيا وارغونه ونافار وراكوفيا وغاليسيا وايل دى فرانس وارتواومين Maine وسكسونيا ولابوى Lapouille (٢) .

---

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٣

(٢) a) Beazley: Dawn of Modern Geography vol II p. 263.
b) Heyd: Histoire du Commerce Tome I p. 3.
وهذه القائمة الطويلة التى أوردها بنيامين ولم يراع الترتيب فى ذكر الأسماء عرضة لكثير من الشك لأنها تمتاز بطابع المغالاة المبنى على الحماسة والاعجاب والرغبة فى إظهار أهمية مدينة دولية كالاسكندرية . ويرتاب هايد فى صحتها ودقتها ويستبعد كثيرا أن ترقى الأحوال فى ألمانيا وسكسونيا وغسقونيا فى القرن الثانى عشر الى الحد الذى يجعل هذه الدول ترسل سفنها الى ميناء الاسكندرية ، كما أنه يستبعد أيضا بل هولا يصدق أن الروسيا تبعث بسفنها فى البحر الأسود والبوغازات والبحر الأبيض الى موانى القطر المصرى (Ibid, p. 389.) ونرى أن الروسيا لم تكن فى حاجة لأن تفعل هذا فى سبيل الحصول على غلات آسيا فى الوقت الذى تستطيع شراءها من أسواق القسطنطينية وهي المدينة الأقرب اليها ؛ أضف إلى هذا أن تجار بغداد كانوا يذهبون ببضائعهم الى سواحل البحر الاسود =

العقبات التى قامت فى سبيل التجارة الخارجية

برغم النشاط التجارى الكبير الذى أوضحناه فقد كانت هناك عقبات كثيرة فى طريقه منها الاختلافات الناشئة من ميول الحكام والوزراء ، فضلا عن اضطرابات العلاقات السياسية مما كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى عرقلة الاتصال التجارى . فاذا حدثت إساءة مثلا رأينا الخليفة يقبض علي رعايا الدولة أو المدينة المتهمة فى نظره ، ويغلق فنادقهم ، ويصادر أملاكهم . والى جانب هذا كثيراً ما نشأت منازعات بشأن تقدير الرسوم الجمركية وذلك لعدم وجود قواعد ثابتة . ويتصل بهذا أيضا بعض الحوادث الدالة علي سوء النية أو التصرف من قبل رجال السلطات الجمركية . ويرى ماس لاترى أن اقتصار التجار الغربيين على الثغور وعدم محاولتهم النفوذ إلى داخلية البلاد والاتصال مباشرة بالشعب من العوامل التى

= وبحر الخزر . أما بيزلى (Ibid, p. 263.) فيزعم أن بنيامين ألف هذه القائمة من أسماء الفنادق التى رآها فى الاسكندرية وهو رأى نرجو أن نخالفه فيه إذ من البعيد علينا أن نصدق أن يكون لانجلترا والدتمرك جاليات محترمة العدد فى مصر إذ ذاك كما أنه ليس من الضرورى أن يكون اسم الفندق دالا على وجود جالية . ويرى Asher — الذى قام بنشر رحلة بنيامين والتعليق عليها — أن بعض الأسماء التى أوردها المؤلف فى حاجة الى تصحيح ويقول أن فالنسيا يقصد بها فى الحقيقة فلورنسا إذ أن الأولى لم تعتنق المسيحية حتى ١١٧٠ م كما يظن أن اسم راجوزا أقرب احتمالا من اسم راكوفيا (أنظر الحاشية فى : Beazley Dawn of Modern Geography vol II,p.263

ولكن Newbigin يرى رأيا مخالفا بصدد راجوزا إذ يقول إن شهرتها التجارية وعلاقاتها التجارية ترجع إلى ما بعد العصور الوسطى (The Nediterranean Lands p 190) . والخلاصة أن فى ذكر هذه الأسماء كلها اسرافا فى التعبير من جانب السائح التطيلى ولكننا مع تعدادها على هذا النحو نجد أن الاسكندرية كانت محطة تفد اليها سفن كثير من الشعوب الأوربية فى أواخر العصر الفاطمى .

حدت من التوسع التجارى (١) . ويبدو أن هذا لم يكن بمحض اختيارهم بسبب ما ساد هذا العصر من روح التعصب والشك من جانب أفراد الشعب نفسه فضلا عن الأخطار التى قد يتعرض لها التجار فى داخل البلاد والتى لم يكن ينجو منها المسلمون،الأجانب منهم أوأهل البلاد أنفسهم . وقد يكون من المحتمل أن الحكومة الفاطمية كانت تقصر نشاطهم على أماكن معينة قياساً على ما كانت تفعله دول بلاد المغرب فى ذلك العصر .

ولعل انتشار القرصنة فى البحر الأبيض كان من أكبر الأخطار التى واجهتها التجارة الخارجية . ويقول Depping بضرورة التفرقة بين نوعين من القرصان ، الأول ويشمل Pirates وكانوا فى العادة ينتمون إلى حزب سياسى أصيب بالهزيمة فى بلاده وأبعد منها ، فدفعهم اليأس إلى القرصنة ضد مواطنيهم والأجانب على حد سواء ، وكان هؤلاء يعتبرون أعداء للجنس البشرى كله . والصنف الثانى وقد أطلق عليه اسم Corsaires وكان تسليحهم يتم بموافقة حكوماتهم ويرتادون البحر مهاجمين السفن التابعة لأعداء وطنهم . وكانوا يوقفون السفن المحايدة ويفتشونها للتأكد من أنها لا تحمل مواد غذائية أوأسلحة مرسلة إلى هؤلاء الأعداء .

ورجال هذه الطبقة من القرصان يمثلون حرباً غير نظامية أو هم أشبه برجال حرب العصابات (٢) . وينطبق وصف الصنف الثانى على قرصان المسلمين الذين جعلوا همهم الأكبر اقتناص سفن المسيحيين وسلبها وقتل ركابها أوأسرهم ويعودون إلى الموانىء الاسلامية لبيعهم أولافتدائهم، كما حدثنا Mann فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ص ٢٢ « وبعد أن يتزودوا بالمؤن والسلاح يعودون إلى استئناف عملهم . وكان فى المحيط الهندى على مقربة من سواحل بلاد العرب لصوص اتخذوا من جزيرة

---

(١) Documents ..., p. 83.

(٢) Deppiug: Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe Tome II p. 329-7.

سقطرى وكراً لهم ، وكانوا يهاجمون السفن المحملة بالمتاجر دون أى تفرقة بين أجناسهم وأديانهم . وبرغم تطهير البحر الأبيض الشرقى نوعاً بعد استيلاء المسيحيين على قبرص وكريت لم يصبح السفر آمناً وظلت الرحلة تعتبر خطيرة » (١) . وكذلك كانت طرق القوافل البرية المتجهة إلى الشام والحجاز وبلاد المغرب والسودان والحبشة عرضة لهجمات قبائل البدو « وقطاع الطرق » .

وأخيراً نلاحظ أن تأخر فن الملاحة فى ذلك العصر وصغر حجم السفن البحرية وقلة عدد الرحلات التى اقتصرت على واحدة او اثنتين فى العام (٢) وعدم العناية بتمهيد الطرق البرية ـ كل هذه كانت من العوامل التي تجعل التجارة الخارجية قليلة بالقياس إلى ما أصبح عليه الحال فى أواخر العصور الوسطى .

الامتيازات التى منحها الخلفاء الفاطميون للتجار الأوربيين

مما يدعو إلى الأسف حقا عدم توافر الوثائق العربية التي تفصل أنواع الامتيازات التجارية التى كان الخلفاء الفاطميون يمنحونها لتجار أوروبا المسيحيين بغية تشجيعهم علي الاتجار مع هذه البلاد . ولا داعى للظن أن هذه الاتفاقات كانت شفوية فمن المؤكد أن هذه المنح كانت تصدر بها مراسيم حتى تكون مرجعا لما قد ينشأ فى المستقبل من خلاف . فقد عقد Ingulf معاهدة مع الحكومة الفاطمية (٣) . وقد عثر فى سجلات مدينة جنوا علي كتب بينها خطاب يمنح الخليفة

---

(١) J. Mann:The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs

جاء فى الصحيفة ٣٤ (وكانت الطرق — الى الشام — خطيرة فى السفر) وفى موضع آخر (قابلت قافلة قطاع الطرق وبالكاد نجوا بأرواحهم)

(٢) Max Weber: General Economic History p 208

(والمؤلف يتكلم عن القوافل البحرية التى كانت تبعث بها جنوه والبندقية) وانظر الفصل الذى كتبناه عن النظم المتعلقة بالتجارة

(١) Beazley: Dawn of Modern Geography vol II, p. 421,

الفاطمى فيه حمايته لأهل مدينة مسيحية (١) . إلا أن الكثير من هذه الوثائق يبدو أن يد الزمن قد امتدت اليه بالضياع والتلف ولم يحفظ لنا منها إلا القليل ، أوأن بعضها لم يكشف عنه بعد . وفى تحليلنا لهذه الامتيازات سنرجع إلى الشذرات القليلة التى أوردها الكتاب الغربيون ممن تناولوا موضوع التجارة الشرقية بالبحث . وكذلك سنرجع الى صور المعاهدات التى عقدتها المدن الايطالية مع دول إقليم المغرب فى ذلك العهد ولا نعتقد أنها تختلف كثيراً فى جوهرها وطابعها عما كانت هذه المدن تسعى الى نيله من الخلفاء الفاطميين اذ المصالح متشابهة والعلاقات تكاد تكون واحدة والروح التى أملت هذه المساعى غير مختلفة فى بلاد المغرب عنها فى مصر . كما أننا قد نعتمد على نوع ما حصل عليه التجار الغربيون من امتيازات من حكام مصر الذين خلفوا الدولة الفاطمية مباشرة . وانا لنرجو أن نوفق الى تقديم صورة واضحة لهذا الموضوع الذى يتصل اتصالا وثيقاً بتجارة مصر الخارجية مع الأمم المسيحية .

الحماية :

ان أول عنصر من عناصر استقرار التجارة أن يطمئن التاجر على حياته وأمواله وبضاعته . فهو حريص كل الحرص أن يحصل علي الأمان الكافى والضمانات اللازمة التى تهيىء لنشاطه أوسع الحدود فى البلد الأجنبى الذى كان يتاجر معه أو علي الأقل فى المناطق التى تحدد له . والكتاب الذى عثر عليه فى سجلات مدينة جنوا فى الفترة (١١٥٥ — ١١٦٦) يمنح أهل المدينة المذكورة حماية الحكومة المصرية . وهذه الحماية تشمل بالطبع عدم الاعتداء على التجار بلا مسوغ سواء من قبل السلطات أو الشعب نفسه ، كما أن فيها حرية التصرف بالبضائع ببيعها أو إعادتها إلى أوربا فى حالة عدم ملاءمة الثمن أو الظروف . واذا تعرضت سفن التجار إلى خطر ما من الأخطار فلها أن تلجأ الى الموانى المصرية . ولما كان كثير من التجار المصريين يسافرون ببضائعهم إلى البلاد الأجنبية كما أوضحنا من قبل فمن المؤكد أن الحكومة الفاطمية كانت تشترط نفس هذه المعاملة والضمانات لرعاياها.

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce, Tome I p 394

ومن جهة أخرى لا بد أنهم كانوا يتفقون على تنظيم بعض المسائل المتعلقة بالمسئولية الفردية أو المشتركة . فسفارة رانييرى البيزى (١) كانت نتيجة لما اتخذته الحكومة المصرية من إجراءات شديدة ضد مواطنيه إثر اعتداء بعض الركاب البيزيين على زملائهم المسلمين . فكأن السلطات المصرية أشركت التجار المقيمين فى بلادها فى المسئولية عن عمل ارتكبه بعض مواطنيهم ، وليس بينهم تواطؤ ، فهذه النظرة القائمة على أساس المسئولية المشتركة لابد أنها كانت تثير كثيراً من المشاكل ، وتستأهل نوعاً من الاتفاق بشأنها . ويخيل إلينا أن هذا كان من المسائل الشائكة إذ لم يكن القانون الدولى قد ثبت فى تلك العصور .

الإقامة :

وكان التجار الإيطاليون وغيرهم يحرصون على أن ينالوا من الحكومة المصرية الإذن لهم بإنشاء الفنادق الخاصة بهم والكنائس لاقامة شعائرهم والمستشفيات لمعالجة المرضى منهم والبيوت لايواء من يرد من مواطنيهم . وكانت الحكومة الفاطمية تمنحهم هذا الامتياز . فقد ذكر بنيامين عن الاسكندرية أن لكل جالية أجنبية بها فندق . وقد وعد الخليفة العاضد أهل بيزا بترميم فنادقهم (٢) . وكان لتجار الروم حى خاص بهم فى الفسطاط (٣) . وقد اشتمل الاتفاق الذى عقده مندوب بيزا Alplerpandus مع صلاح الدين الأيوبى على حق أهل المدينة فى ممارسة شعائرهم الدينية واستعمال موازينهم ومقاييسهم (٤) كما ذكر هايد فى كتابه عن تجارة الشرق (ج ١ ص ٣٩٧) .

مراعاة التقاليد :

ولا بد أن الحكومات المسيحية كانت تقدم التعهدات الكافية على حرص رعاياها المقيمين بمصر من حيث مراعاة تقاليد البلاد وشعور أهلها الدينى كالامتناع عن دق أجراس الكنائس وشرب الخمر فى أيام الجمع وفى شهر رمضان ، أو السير بجنائز من يموت منهم فى الطرقات العامة ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية .

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce, Tomé I, pp. 392-3.

(٢) Beazley: Dawn of Modern Geography, Vol. II, p. 431.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٧٨

ومن المؤكد أن التجار الغربيين كان يعنيهم كثيرا مراعاة هـذه الأمور حرصاً على مصالحهم التجارية أن تتعرض لاعتداء العامة وما كان أيسر على هؤلاء العامة أن يثوروا على الأجانب اذا اشتموا رائحة المساس بالشعور الدينى ، بل إن رواج اشاعة كاذبة كان يكفى فى ذلك العصر لاستفزازهم كما حدث حين اعتدوا على التجار الروم بالقتل والسلب بمجرد الظن أن لهم دخلا فى احراق الاسطول الذى كان قد أعده العزيز(١) .

القرصنة :

وهذا أهم ما كانت تتفق على مقاومته الدول المتعاقدة مع مصر لأن فى هذا العمل ضماناً وافياً لانتظام سير التجارة ، وقد رأينا كيف اعتبرت الحكومة الفاطمية فى المعاهدة التى عقدتها مع بيزا أن المسافرين فى حالة غير سلمية أو على ظهر سفن حربية غير جديرين بحمايتها ، بل هم فى نظرها من القرصان الذين تطاردهم قواتها وتعمل على الفتك بهم (٢) ، ويؤيد هذا نصوص المعاهدة التى عقدتها جنوا مع دولة الموحدين عام ١١٥٣ (٣) ، والاتفاق الذى أبرم بين بيزا وسلطان مراكش عام ١١٨٦ (٤) .

عدم الاعتداء :

فى المفاوضات التى أجرتها الحكومة البيزنطية طلبت من الخليفة الفاطمى اذ ذاك ألا يساعد أمير صقلية فى حرب ضد الروم (٥) كما أن الحكومة الفاطمية اشترطت في المعاهدة مع بيزا أن لا تنضم الأخيرة الى الصليبيين فى الشام(٦) اذ فى هذا العمل اخلالا بالعلاقات الودية ، مما يجعل الحكومة المصرية فى حل من الغاء ماسبق لها منحه من امتيازات تجارية ، وهذا الاجراء السليم يتفق فعلا مع قواعد القانون الدولى الحديث وأصوله .

---

(١) يحي بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٧٨

(٢) Heyd. Histoire du Commerce, Tome I, pp. 393-4.

(٣) Mas Latrie: Documents, p. 47.

(٤) Ibid, p. 94.

(٥) يحي بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٧٠ — ٢٧١

(٦) Heyd: Histoire du Commerce, Tome I, pp. 393 - 4.

الرسوم الجمركية :

كانت الاتفاقات تنصب بوجه خاص على الرسوم التى يدفعها التجار على الواردات والصادرات ، وذلك بتحديد نسبة مئوية معقولة . ويبدو أنه لم تكن هناك قاعدة مقررة ثابتة بل كانت الحكومة الفاطمية تتبع نظام التفضيل preferential system لاعتبارات مختلفة . وبعبارة أخرى كانت تستخدم الرسوم الجمركية سلاحاً فى يدها ووسيلة من وسائل الضغط ، ولذا اهتم التجار بالحصول على تخفيض المبالغ التى يدفعونها عما يتقاضونه من متاجر يدل على ذلك ماوعد به روجر الثانى أهل امالفى ، وسالرنو عام ١١٣٧ بالسعى لدي الحكومة المصرية فى هذا الصدد (١) . وفى معاهدة جنوا سنة ١١٦٠ م مع دولة الموحدين حددت الرسوم على السلع التى يحملها التجار الجنويون الى الموحدين بنسبة قدرها ٨٪ (٢) ولكن يظهر فى مصر أنها كانت تتراوح بين ١٠٪ ، ٢٠٪ وأحياناً تصل الى ٣٥٪ (٣) ، والنسبة الأخيرة عالية ، ولذا كانت المدن الأوربية تسعى الى تخفيضها . أما الاعفاء الكلى من الضرائب على غرار ما كانت تفعله الولايات اللاتينية فى الشام فلم تكن حكومة الفاطميين لتمنحه والا عرضت مواردها المالية لخسارة كبيرة كما أنه يكن من المنظور أن تعامل حكومة اسلامية الدول المسيحية بهذه الروح فى الوقت الذى تستأدى فيه الرسوم من التجار المسلمين .

الموانى :

وتدل صور المعاهدات مع بلاد المغرب والتى لخصها Nas Latrle (٤) على اشتمالها علي شروط متعلقة بالنزول إلى البر والابحار من الموانى ، ونقل السلع وحراستها وبيعها سواء فى الفندق أو فى الجمرك ، وكذلك رسوم الوزن والسمسرة وما إلى ذلك من التفاصيل الخاصة بالتعليمات التجارية . وليس لدينا أدلة وافية عن هذا الموضوع بخصوص مصر ، ولكنا نعتقد بوجود اتفاقات بشأن هذه المسائل . وحدثنا ابن جبير عن طلوع الأمناء علي ظهر السفينة ولا ريب أنه كان لا يصرح

---

(١) Ibid pp. 391 - 2.

(٢) Mas Latrie: Documents, p. 47.

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين « مخطوطة » ص ١٤٧

(٤) Documents, pp. 97 - 109.

للركاب بالنزول الى البر الا بعد اتمام هذا الاجراء ثم يساقون للتفتيش فى أماكن معدة لهذا الغرض . ونظن ان هذا الاجراء فى العصر الفاطمى (١) كان يرجع الى غرض صحى هو منع انتقال الأوبئة ، أو اقتصادى حتى لايقدم بعض القادمين على التهريب كما يصح أن يكون القصد من هذا أيضاً مكافحة الجاسوسية ، ومنع دخول الأشخاص الذين قد يعدون خطرا علي الأمن العام وسلامة البلاد .

القناصل :

ولم يحدثنا أحد من الكتاب الغربيين عن قناصل فى مصر والشام وبلاد الغرب فى العصر السابق للحروب الصليبية ، مما يحمل على الظن أن نظام القناصل وليد هذه الحروب . ولكنا نعلم بوجود هذا النظام فى بلاد الصين اذ كان للعرب فى ميناء كانتون رجل منهم أو من مسلمى الصين ومهمته النظر فى أحوالهم(٢). ولما كان من الضرورى وجود تنظيم للفصل فى المنازعات التى تنشأ بين أفراد الجالية الأوربية فى مصر والتى لا يجوز للقاضى المسلم أن يفصل فيها وفق قواعد الشرع الاسلامى ، ولما كان من الأمور المرعية أيضا فى مصر أن يتولى الفصل فى القضايا الخاصة بأهل الذمة الوطنيين والتى يطلق عليها عبارة الأحوال الشخصية اليوم رؤسائهم ، لهذا نرجح أن التقاليد قد جرت أن يتولى أحد أفراد الجالية النظر فى هذه المسائل وان لم يستعمل لفظ خاص للدلالة على مركزه أو وظيفته .

---

(١) كتاب الرحلة : ص ٣٩ ويلاحظ أن ابن جبير هذا زار مصر بعد سقوط الفاطميين بزمن قليل

(٢) فى سنة ١٠٢٣ م وفد الى كانتون عدد كبير من الأجانب من Ta-che « بلاد العرب » وأرسل زعيمهم Pou-Sy-yo هدايا كثيرة الى الامبراطور الذى كان سخيا معه وفى سنة ١٠٦٨ م عين الامبراطور Chin-Tsong أحد هؤلاء الأجانب لادارة شئون تجار العرب وأعطاه لقب Houm - hon—tsing — kieore

P. Darby de Thiersaut: Le Mahometisme en Chine, Tome I p. 84.

الفصـــل الحادى عشر

الواردات

(١) الجواهر وأدوات الزينة والترف :

عظم الاقبال علي اقتناء هذه السلع إلى حد كبير فى العصر الفاطمى بالقياس الي العصر السابق له . والدليل على ذلك ما خلفه لنا الكتاب عن المقادير التى يحار العقل فى الايمان بصحتها ، مما احتوته خزائن قصور الخلفاء وما خلفه رجال الدولة من الأمراء والوزراء من ثروات (١). أما النساء فاقبالهن عليها يرجع الى طبيعتهن وميلهن الى التزين بما يزيد فى سحرهن . ولكن اقتناء هذه المقادير الضخمة يحمل على الظن أنها كانت احدى سبل استثمار الأموال لعدم تعرض الأحجار الثمينة للتلف السريع أو انحطاط قيمتها وهذا فضلا عن اعتبارها فى تلك الأزمنة مظهرا من مظاهر الجاه والسلطان والقوة والمركز الأدبى . وأخيراً فقد كانوا يستخدمونها فى أغراض مختلفة ، كعمل أغماد السيوف والسروج والخيمات المحلات بالجواهر من مختلف الأنواع . وقد كانت الكسوة التى أمر المعز لدين الله بعملها مثلا لذلك ، فقد كان فى حافتها اثنى عشر هلالا ذهبيا ، وفى كل هلال أترجة ذهبية ، فى داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق (٢) .

---

(١) اشتملت ثروة جوهر الصقلى على « أربعة صناديق من اللؤلؤ الكبار وألف قصبة من القصب الزمرد ودواة من الذهب طولها ذراع مرصعة بالدر والياقوت وسبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس (ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥١) واحتوت ثروة الوزير يعقوب بن كلس من الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بمائة ألف دينار » ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ »

وكان فى حيازة الوزير الأفضل دواة يكتب بها مرصعة بالجواهر قوم جوهرها باثنى عشر ألف دينار « ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٧ »

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٥

ابن ميسر : أخبار مصر ص ٤٤

وكانت أكبر مصايد اللؤلؤ الخليج الفارسي وسواحل عمان كما يتضح من عبارة الجاحظ «أن خيرأنواعه العمانى المستوى الجسد الشديد التدحرج والاستواء» (١). ثم أخذ التجار يستخرجون اللؤلؤ من مياه جنوبى الهند وجزيرة سيلان وهى أماكن المصايد الشهيرة ولكن يبدو أن نوع ما كان يصطاد من تلك الجهات أقل جودة إلا أن شدة الطلب فى مصر وأوربا جعل من المتعذر الاعتماد على انتاج المنطقة الأولى. أضف إلى ذلك انه كان بالبحر الأحمر مصادف لها أهميتها ويقال إنه موطن الدرة اليتيمة إلا أن « اللؤلؤ القلزمى فيه ملوحة وعيب كبير » (٢) مما جعل سعره فى السوق أدنى من أسعار الأنواع الأخرى.

وكان بمصر على مسيرة سبعة أيام من قفط فى الصحراء الشرقية مناجم يستخرج منها الزمرد ولعل هذه كانت أكبر مواطنه. ومن أنواع الجوهر كذلك الياقوت وكان التجار ينقلونه من « جبل سرنديب بالهند » أى بلاد الهند وجزيرة سيلان « أما المرجان فأهم مراكز استخراجه البحر الأحمر لكثرة الشعاب المرجانية على مقربة من سواحله. وكذلك كانوا يأتون به من البحر الأبيض المتوسط عند صقلية وسواحل بلاد المغرب خاصة عند جزيرة جربة. وأفضل أنواع المرجان « الاحمر القانى اللون ويسمى البهرمانى ثم يتلوه الاحمر المشرق اللون الناقص عن لون البهرمانى قليلا ويسمى الرومانى وبعده الازرق الغميق اللون وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجونى وبعده الأصفر . . . ثم الذهبى (٣) » والاسمانجونى كلمة فارسية مركبة من لفظين : (اسمان) أى السماء و (كرن) بمعنى « لون » أو بمعنى « الشبيه ب » ومعناها الابيض المشوب بزرقة كلون السماء. وكانوا يتخذون من المرجان الحلى والاعلاق والسبح.

ومن الأنواع المفضلة العقيق وتدل عبارة الجاحظ على أن أكبر المراكز التى كانت تمون الأسواق به بلاد اليمن اذ « خيره اليمانى الشديد الحمرة . . . وكلما كان أصفى وأضوأ كان أجود فى الثمن » (٤). أما الماس فلم يكن استعماله شائعا فى ذلك العصر

(١و٢) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ١٢

(٣) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٤ «وفى الحاشية معنى الاسمانجونى»

(٤) كتاب التبصر بالتجارة ص ١٥

ولا نجد له ذكرا فى المخلفات التى أورد أوصافهـا المؤرخون الذين اعتمدنا عليهم إلا فى منـاسبة واحدة حيث اشتملت تركة الأمير جوهر على ٧٠٠ خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس (١) ويظهر أن الانتاج من هذه المادة كان قليلاجدا وأنهم كانوا يحصلون على هذه المقادير الصغيرة من جزيرة سيلان أو من بلاد سفالة أى الساحل الجنوبى الشرقى من إفريقية ولا تزال مناجم أفريقية الجنوبية أكبر مصدر لهذه السلعة فى هذه الأيام .

وكان التجار الذين يصلون إلى عيذاب من الساحل الشرقى لإفريقية ومن بلاد الحبشة يحملون الى مصر مقادير وافرة من سن الفيل (٢) ومن المحقق أن القوافل التى كانت تقصد بلاد دارفور كانت تعود كشأنها فى كل العصور الوسطي والعصر الحديث محملة بهذه المادة وكانوا يستخدمونه لأغراض مختلفة فيصنعون منه المقابض الثمينة والعلب الفاخرة لحفظ الحلى وأنواع العطور وغير ذلك . ونجد أوصاف البعض فى كتاب « جامع الكتابات الكوفية » وغير ذلك من الكتب الخاصة بالفنون الاسلامية .

وقد حدثنـا اسامة بن منقذ فى كتاب « الاعتبار » (ص ١١) أن القوم فى مصر كانوا يصنعون النسيج المسنجب أى المتخذ من فرو حيوان السنجاب ولذلك كانوا يشترون أنواع الفراء الفاخرة من بلاد الروسيا وما جاورها ويحملها إليهم تجار البندقية وغيرهم من المدن الايطالية أو يحصل عليه التجار المصريون من أسواق بيزنطة مبـاشرة .

ولم يكتف المصريون بما تخرج مناسج بلادهم من أدق أنواع النسيج وأفخرها بل كانوا يشترون مقادير كبيرة من النسيج المصنوع فى البلاد الشهيرة بأصناف معينة كبغداد وبعلبك وصقلية فقد كانت ثروة الوزير الافضل تحتوى على تسعين ألف ثوب عتابى من الديباج (٣) . ومن المرجح أن المصريين كانوا يصنعون هذه الأنواع وينسبونها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥١

(٢) ذكر ناصرخسرو فى كتابه « سفرنامه » العاج الوارد من زنجبار ص ١٤٦

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٢ وقد فسر المؤلف فى الحـاشية معنى عتـابى بما يأتى : « نوع من الثياب الحريرية تنسب الى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب »

إلى مصدرها الأصلى وهذا لايمنع مطلقا أن مقادير منه كانت تصل الى الأسواق المصرية من العراق . وقد اشترى المعز لدين الله الفاطمى من فارس ستارة من الديباج بما يقرب من اثنى عشر ألف جنيه بالعملة الحديثة(١) وكان فى خزائن الأفضل ألف عدل (٢) من أمتعة اليمن وغيرها . ونقرأ عن ثلاثين ألف شقة حرير صقلية وعن النسيج البعلبكى . وقد أوضح لنا الرحالة ناصر خسرو كيف كانت السفن تبحر كل عام من الاسكندرية الى جزيرة صقلية للحصول على ماتصنعه معاملها من أنسجة دقيقة من الكتان والحرير تباع القطعة منها فى أسواق مدينة مصر بعشرة دنانير (٣) . واشتهرت دمشق بصناعة الأسلحة والأواني من المعدن وقد شاهد ناصر خسرو فى أسواق الفسطاط كثيرا من هذه الأوانى الواردة من عاصمة بلاد الشام (٤) . وقد أشار الرحالة نفسه الى قطع البلور فى أسواق الفسطاط وقد امتازت بالصفاء والشفافية وقال إنها من الوارد من بلاد المغرب ثم أخذ القوم فى مصر يحصلون على أنواع أخر منه من البحر القلزمى (٥) ولا شك أنه يقصد بلاد الصين حيث كان لهذه الصناعة مركز ممتاز وقد كشفوا فى منطقة بلدة سواكن القديم (٦) وفى خرائب الفسطاط قطعا من الخزف مما أخرجته معامل الصين . وقد أهدى التاجر المصرى أبو العباس الحجازى الى الوزير الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى أنواعا ممتازة من هذه الصناعة مما أتى به من بلاد الصين كما أخبرنا أبو حامد الاندلسي فى كتابه « تحفة الألباب » (ص ١٠٦ — ١٠٨)

(٢) التوابل والعطور والافاويه

كانت التوابل والعطور والبخور من أهم واردات مصر تستهلك السوق المحلية

---

(١) ا) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٥

ب) Stanley Lane-Poole. The Story of Cairo p. 132.

(٢) العدل هو الغرارة أو الكيس الكبير « أنظر Dozy Supplément aux Dictionnaires Arabes. Tome II, p. 103.

(٣) راجع أيضا قاموس المحيط Sefer Nemeh . p. 122.

(٤) Ibid, p. 152.

(٥) Ibid, p. 149.

(٦) Hannotaux. Histoire de la Nation Egyptienne, Tome I p. 337.

قدرا منهـا وتصدر الباقى الى الأسواق الأوربية والافريقية وكانت هذه التجـارة مصدر ربح كبير للمشتغلين بها وموردا ماليا هاما لبيت المال بسبب الرسوم المفروضة عليها وأهم أنواع التوابل الفلفل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والبهار . وأهم هذه الأصناف من الوجهة الاقتصادية فى العصر الفاطمي الفلفل وقد أثارت الاحمال الـكبيرة منه دهشة ابن جبير حينما وصل الى ثغر عيـذاب حتى خيل إليه أن هذه السلعة من الـكثرة بحيث لاتزيد قيمتها على قيمة التراب ان كانت له قيمة (١). ولو عاش ابن جبير فى زماننا لقـال ان الفلفل بسبب أرباحه كان « الذهب الاسود » . ومما استرعى نظره كذلك لـكثرتها احمال القرفة . (٢) اما مراكز انتاج التوابل فـكانت سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو (٣) اما البخور واللبان (٤) فـكانت هى والتوابل من الضروريات التى لاغنى عنها . فـكانت خزانة التوابل بقصور الفاطميين تحتوى على مقادير منها لمختلف الأغراض(٥) اما فى اوربا فالبخور من مستلزمات الطقوس الدينية فى الـكنائس الـكاثوليكية فى روما وغيرها من البـلدان . ولا ننسى أهمية هذه المادة بالنسبة إلى البيوت والجوامع والمشاهد في مصر وكانت الحـكومة الفاطمية تخصص مبلغا سـنويا لهذا الغرض الأخير . ويبدو أن استيراد البخور واللبان اقتصر على بلاد العرب (٦) .

---

(١) كتاب الرحلة : ص ٦٧

(٢) شرحه ص ٦٧

(٣) Ferrand Relations des voyages p. 193.

(٤) من منتجات بلاد العرب كما يستدل من عبارة الدمشق فى (الاشارة الى محاسن التجارة) « صمغ شجر فى تمر عمـان » ص ٢٢

(٥) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٢٠ وما بعدها

(٦) يقول الدكتور حزين إن بلاد إفريقيـة الشرقية وبلاد العرب كانت تمد العـالم بالتوابل قديما ثم تضاءل انتاجها فى العصور الوسطى وأورد لذلك سببا هو عدم كفاية الانتاج بالقياس الى ازدياد الطلب العالمى عليها . ولـكنه لايأخذ كثيرا بهذا الرأى ويعتقد أن جفافا جزئيا أصاب تلك المنطقة هو السبب الذى جعـل انتاجها غير واف ولم يعد ينمو بهـا الا أنواع البخور التى تتحمل الجفاف . (Arabia and the Far East. pp. 35 - 38)

وكانت أنواع مختلفة من النباتات العطرية ترد الى مصر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو فهناك العود وخير أنواعه ما جاء من مندل بالهند ويمتاز بالشذا الذكى(١) أما المسك فأعظم مواطنه بلاد التبت وهو يفوق غيره من المسوك جودة وثمنا (٢) . وقد اشتملت ثروة الوزير المأمون البطائحي على مائة من العود القمارى (٣) ووجد هذا النوع فى خزائن القصر عند نهبه أيام الخليفة المستنصر بالله وهذا النوع كان مصدره بلاد Khémer (٤)

وهناك الكافور وهو صمغ شجرة خشبها أبيض يميل الى السواد (٥) . وقد وصف لنا ابن خرداذبه طريقة الحصول عليه فكانوا يحدثون خدشا فى أعلى الشجرة فيسيل منها ماء الكافور بمقادير وافرة ثم يعمل خدش آخر فى وسط الشجرة فتسيل قطع الكافور وهو صمغ هذه الشجرة (٦) . وذكر الادريسى أن أكثر البلاد إنتاجا للكافور جزائر الزابج المواجهة لسوحل بلاد الزنج (٧) وبلاد الزنج هى ساحل افريقية الشرقى من خليج عدن إلى جزيرة مدغشقر على ماجاء في دائرة المعارف الإسلامية (انظر مادة : زنج) . وجزائر الزابج هذه ليست إلامجموعة جزرجاوه وسومطره وبرنيو . وقال ابن سرابيوم الطبيب السورى المتوفى فى القرن العاشر الميلادى إن أجود أنواع الكافور صنف اسمه الرياحى ولونه أحمر وموطنه مكان يدعى قنصور وهذا هو الكافور الأعلى درجة والأنقى والأنصع بياضا ولمعانا (٨) . وقد ذكر ابن اياس فى (بدائع الزهور : ج ١ ص ٦٣) أن الوزير المأمون البطائحى خلف مائة جرة مملوءة من الكافور القنصورى النادر الوجود .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (مادة : مندل)

(٢) ابن حوقل : مسالك وممالك ص ٣٢٧ ، ٣٣٧

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٦٣

(٤) موقع هذا المكان فى ولاية (كوشين شين)

(٥) Ferrand. Relations des Voyages p. 112. (d'après Ibn Serapium)

(٦) Ibid, p. 54.

(٧) Ibid, p. 174.

(٨) Ibid, pp. 112 - 3.

ومن أنواع العطور العنبر وخير أنواعه الأشهب الزايجى (١) أى الوارد من جزر الهند الشرقية وخاصة جاوه وبورنيو وسومطره . وكانو يأتون به كذلك من السواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب ومن الساحل الشرقى لافريقية. ويجعل الدمشقى (الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٩) أجود أصنافه ماجلب من شحر عمان وقد وجدوا قطعا منه لما نهبت القصور فى عهد المستنصر . وهذه الأنواع تفوق ما كانوا يحصلون عليه من البحر الابيض المتوسط عند صقلية وشواطىء اسبانيا .

ومما نلاحظه على روح الترف فى العصر الفاطمى وانتشار الثراء بين الناس تلك المقادير الكبيرة من العطور فقد ذكر المقريزى (الخطط والآثار ج ١ ص ٤١٥) أنهم وجدوا من بين تركة ست الملك ثمان جرات ملأى بالمسك ، وذكر ابن ميسر فى « أخبار مصر » (ص ٥٨) أنه كانت فى خزائن الوزير الأفضل خزانة للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره أما أوانى المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث يصعب عدها .

(٣) الرقيق

ظلت مصر خلال العصور الوسطى سوقا عظيمة الرواج لتجارة الرقيق وكان الاقبال على اقتنائهم شديداً سواء من قبل الأهالى أوحكام البلاد . وكانوا يستخدمون فى الجيوش فقد أكثر احمد بن طولون من شرائهم حتى أصبح لديه ٢٤٠٠٠ من الديالمة ، ٤٠٠٠٠ من الزنج (٢). وسن الخليفة الفاطمى العزيز بالله سنة استخدام الاتراك فى الجيش فزاد عددهم كثيرا وأكثرت أم المستنصر بالله من استجلاب السود حتى بلغت عدتهم خمسين الفا أصبحوا مصدر الفتن والثورات حتى طهر البلاد صلاح الدين من شرهم . وكان فى الاحتفال بجبر الخليج تقاليد منها أن يسير الجيش فى ركاب الخليفة ومنهم عشرة آلاف من الاتراك والفرس وثلاثون الفا من السودان ويطلق عليهم عبيد الشراء أى الأسارى الذين اشترو بالمال(٣) وكان للوزراء والأمراء

---

(١) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ١٨ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧

(٣) المقصود بالنسبة الى خلفاء الدولة الفاطمية فى مصر، الدكتور حسن إبراهيم حسن، الفاطميون فى مصر ص ٢٥٠

غلمان أشبه بحرس لهم . وأكثر الخلفاء الفاطميون من استخدام المماليك البيض وقد نجح بعضهم فى الوصول الى أكبر المراكز فى الدولة والبلاط الفاطمى وتصرفوا فى شئون البلاد. وهناك نوع من الرقيق وهو ما أطلق عليه اسم الخصيان وكانت لهم منزلة فى « حريم » القصور. أما الجوارى فقلما خلا منهن قصر الخليفة أو أفراد أسرته أو الوزراء ومن دونهم فقد كان للوزير الأفضل ثمانمائة جارية بينهن خمسون حظية لكل واحدة منهن حجرة تخصها(١). وروى المقريزى فى الخطط (ج ١ ص ٤١٥) أنه كان لست الملك ثمانمائة جارية وقس على هذا غير هؤلاء لبيان مدي انتشار هذه التقاليد فى العصر الفاطمى حيث ساعد عامل الثروة والبذخ على الاستكثار من هذه السلعة الآدمية . وإذا كانت الأرقام التى أوردناها كبيرة فانه ليدهشنا أن يضم قصر أخت الخليفة الحاكم بأمر الله أربعة آلاف جارية مابين بيض وسود ومولدات (٢) .

وكانت الجوارى للخدمة فى القصور واتخذ الرجال منهن محظيات حسب مايخولهم الشرع من حق . وهن فى الوقت نفسه زينة الحفلات التى تقام بالقصور وعليهن الكثير من الفروض كالغناء والرقص . وفى الواقع كان استخدام الجوارى وإن أكسب الحياة الاجتماعية فى البيوت طابع المتعة والتسلية إلا أنهن كن من عوامل الانهيار الخلقى وفساد الطباع إذ نشأ الولد فى أحضانهن يأخذ من معاشرتهن أسوأ الرذائل والصفات وينغمس فى تيار اللهو وهذا يعلل مانسمع عنه من ميل بعض الخلفاء الفاطميين مثل الظاهر والآمر وغيرهما الى هذا اللون من الحياة .

أما العبيد السود فكان مصدرهم بلاد النوبة والحبشة والسودان فقد حدثنا ابن الوردى أن من مدن النوبة المشهورة بلدة نوابية وفى نسائها الجمال الفائق والحسن الكامل ولهن حسن المنطق وحلاوة اللفظ وكانت قيمة الجارية فى زمانه ثلاثمائة دينار (٣). وذكر المقدسى فى (أحسن التقاسيم ص ٢٤٢) أن الخدم الذين رآهم فى مصر من السودان وهم أجود الأجناس . وكان خصيان الحبشة من أفضل أنواع

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٨
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥٨
(٣) ابن الوردى : خريدة العجائب ص ٤٣

الخصيان وفى نساء تلك البلاد حلاوة وحسن (١). وكان هؤلاء العبيد والجوارى ممن يختطفهم تجار الرقيق وهم فئة قوية السلطان وإما من أسرى الحروب فى تلك المناطق المتأخرة حيث يكثر اعتداء القبائل بعضها على بعض ويخيل الينا أن بعض القبائل تخصصت فى هذا العمل ثم تبيع العبيد الى التجار الذين يحملونهم الى الأسواق فى مصر وغيرها من البلدان . وكان ايراد سوق الرقيق لابأس به فقد أوقفه أحمد بن طولون على المارستان العتيق (٢). أما الرقيق من الأجناس البيضاء فكان يشمل فى الأصل الأسرى من العناصر الجرمانية وكان عددهم كبيرا بسبب الحروب الكثيرة الدائمة بين الشعوب التيوتونية (٣) ثم أصبح الاسم يطلق على جميع البيض ممن خدم فى الجيوش والحريم مهما كان أصلهم. وقد كان هناك بجانب العناصر الألمانية رقيق من الصقالبة وغيرهم من الشعوب التى تقطن بجوار الساحل الشمالى للبحر الاسود وكان التجار الأوربيون يأتون بهم الى الأسواق المصرية والشرقية . ومن موارد الرقيق أيضا البؤساء ممن يقتنصهم القرصان فى عرض البحر يبيعونهم فى الموانى إذا لم يجدوا من مواطنيهم من يفتديهم (٤) .

وانتهز اليهود فرصة سوء أحوال بعض الناس فى أوربا فاشتروا منهم أطفالهم من الجنسين ونظرا لصغر سن هؤلاء كانوا يربون على الاسلام ويدرسون العلوم وفنون الفروسية . أما الخصيان والطلب شديد عليهم كما قلنا فى الحريم الشرقى فقد كانت هناك معامل خاصة لهذا الغرض يديرها اليهود (٥) ويظهر أن أكبر الوسطاء فى هذه التجارة كانوا من بنى اسرائيل وقد شنت الكنيسة فى أوربا حملات شعواء على هذه التجارة القاسية كما يتضح من القرارات الكنسية التى صدرت فى مناسبات عدة(٦) .

---

(١) ابن الوردى : جزيرة العجائب ص ٤٤

(٢) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٩٩

(٣) Dozy: Histoire des Musulmans de ' Espagne. Tome II, p. 154.

(٤) ذكر لنا J. Mann فى كتاب «The Jews in Egypt and Palestine under The Fatimid Caliphs» أمثلة لهذا راجع صفحات ٩١ و ٢٣٢

(٥) IDozy. Histoire des Musulman des I' Espagne Tome II, p. 154.

(٦) Milnte: History ef he Jews Vol. III, pp. 210 - 16.

(٤) خامات الصناعة وسلع أخرى :

لم تكن مصر لتستغنى عن الخارج فى الضروريات كذلك فالحرير لايوجد بها وكذلك الخشب لبناء السفن والحديد ولذا اعتمدت علي الشام وشمالى افريقية فى الحصول على الحرير كما مونتها أحراش الشام وسواحل بحر الادرياتيك بالأخشاب . وأهم مواطن الحديد فى ذلك العصر كارنتيا وافريقية . وكانت بعض مواد الصباغة لاتتوافر فى البلاد ولذا تراها تستورد البقم من أكبر مراكزه بجزر الهند الشرقية والقرمز من بلاد ارمينية وقد عرفه الجغرافى ابن حوقل فى كتابه (مسالك وممالك ص ٢٤٤) أنه صبغ أحمر وأصله من دود ينسج على نفسه مثل دودة القز إذا نسجت على نفسها القز .

واستوردت مصر خشب الساج لصنع المحاريب والأبواب فى المساجد والقصور ومصدر هذه المادة شبه جزيرة الملايو . أما المواد الغذائية فكانت أنواع منها تأتى إلى مصر فقد أدخل الفاطميون تقليدا جديدا فى البلاد وهو توزيع الفطرة من اللوز والجوز والفستق وغيرها وكانوا يحصلون على هذه السلع من مواطنها كالهند والشام والمغرب فقد ذكر البكرى أن قفصه أكثر بلاد القيروان فستقا ومنها يحمل إلى مصر (١) . وكذلك يحمل إليها مقادير كبيرة من الفواكه التى تنمو ببلاد الشام إذ تمتاز علي الأنواع المصرية . ثم الزيت كانت تصدره بلاد المغرب وخاصة مدينة صفاقص حيث كان أهل مصر يمتارون من زيتها (٢) . وكانت مصر تنتج ما يحتاج اليه أهلها من الحبوب كالقمح والشعير إلا أنه فى أوقات القحط حيث تشح المحاصيل تستورد الغلال من الخارج وقد أوضحنا كيف طلبت حكومة المستنصر من الدولة البيزنطية مقدارا كبيرا من الغلال وكيف كان تجار الأندلس يأتون بالمقادير من القمح (٣) فى أيام الشدة المستنصرية .

---

(١) المغرب فى ذكر أفريقية والمغرب ص ٤٧

(٢) شرحه ص ٢٠

(٣) الاعتباط فى حلى مدينة الفسطاط « مخطوط » ج ٤ ص ١٠٧

وقد حدثنا ناصر خسرو عن شيء آخر يصل إلى البلاد من الشام فقد كانوا يأتون يوميا إلى قصر الخليفة بأربعة عشر حملا من أحمال الجمال من الثلج وكان الخلفاء يعينون رواتب ثابتة منه للوزراء وعلية القوم كما كانت مقادير منه تعطى لمن يحتاج إليه من الناس لاستخدامه فى حالة المرض(١) .

الصادرات

برغم طبيعه مصر الزراعية ووفرة انتاجها لم يكن اصدار المنتجات الزراعية عنصرا هاما فى التجارة الخارجية واقتصر الأمر على ماتبعث به البلاد الى بلاد المغرب والشام ، فقد ذكر المقدسى « المشتول كثيرة الطواحين ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك وأحصيت فى هذه السنة فاذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل كل اسبوع كلها حبوب ودقيق(٢) » . وذكر المقريزي أيضا أن ما كان يحمل من ثغور الاسكندرية ودمياط وتنيس الى عسقلان وصور عبارة عن مائة وعشرين ألف أردب من الغلال » (٣) . ولاريب أن المقادير المصدرة لاتعد شيئا مذكورا بالنسبة الى محصول البلاد من الغلال .

ولكن أهم صادرات العصر فى الحقيقة كانت التوابل والعطور والبخور ومن الفيل وغير ذلك من المواد والسلع التى نشتريها من أسوان وآسيا وإفريقية . وفضلا عن ذلك فقد كان لدى مصر ماتصدره فهناك النطرون والشب احتكرتهما الحكومة الفاطمية لبيعهما الى تجار الروم. وكانت المنسوجات المصرية ذات سوق رائجة فى أسواق أوربا والشرقين الأدنى والأوسط .أما النوبة فكان مايصدر اليها عبارة عن المرجان والامشاط والملابس السميكة وذلك مقابل الحصول على منتجات تلك البلاد .

---

(١) Sefer Nemeh p. 153.

(٢) أحسن التقاسيم : ص ١٩٥

(٣) الخطط جـ ١ ص ٤٦٥ « نقلا عن ابن الطوير »

الفصل الثانى عشر

بعض النظم المتعلقة بالتجارة

الشركات

قد يبدو من المبالغة أن نتكلم على الشركات عند المصريين فى العصر الفاطمي ولكنا سنرى أن هؤلاء القوم كانت لديهم أنظمة وقواعد يصح اعتبارها الاساس الذى بنى عليه كثير من المظاهر الاقتصادية فى العصر الحديث .

لقد كانت القاعدة المتبعة في ذلك العصر أن يخرج التاجر بنفسه فى صحبة تجارته الى البلد الاجنبي حيث يتولى بيعها بالثمن الذى يروقه ثم يعود بغيرها من منتجات ذلك البلد . ولاريب أن الدافع لهذا العمل كان الاحتياط وزيادة الاطمئنان فقد حدثنا كتاب الاعتباط فى حلى مدينة الفسطاط نقلا عن تاريخ القرطبي (ج ٤ ص ١٠١) (١) أن تاجرا من طرابلس وصل ببضاعته الى ثغر الاسكندرية ثم افترق عن زملائه وتوجه الى رشيد فى عشارى اكتراه واعتزم السفر الى الفسطاط . وهذا مثل واحد على ما نقول ولا بد أن المصريين كانوا يتبعون هذه القاعدة فقد شاهد بنيامين عددا منهم فى مدينة بيزا بايطاليا وفى برشلونة باسبانية (٢) .

ولكن الى جانب هذا النظام البسيط كان لديهم نوع من نظم الشركات وهو نوع كما سنرى كان سائدا فى العصور الوسطي فى مختلف جهات أوربا أيضا . روي أبو شامة فى حوادث عام ٥٦٧ هـ نقلا عن ابن الأثير مانصه «خرجت سفن من مصر إلى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية مركبين مملوءتين بالأمتعة — وكان نور الدين قد هادنهم — وكان لوالدى فى المركب تجارة مع شخصين فلما اعادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان إلا اليسير وكان يحمل المتاع فكلف من كان اسمه عليه أوعلى

---

(١) راجع كذلك قصة التاجر الايرانى المشتغل بنقل البضائع بين الأقاليم المختلفة فهى شبيهة بمثل هذا (الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٧٨)

(٢) Beazley: Dawn of Modern Geography, Vol. II, p. 222.

ثوبه أخذه وكان فى الناس من يأخذ ماليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته»(١). وقد آثرنا نقل عبارة المؤلف بنصها لما لها من أهمية كبرى فى نظرنا الى موضوع الشركات والذى يعنينا من الأمر هو كلمة المضاربين التى ذكرها أبو شامة . والمضاربة أو القراض تدخل في باب الشركة وفيما يلى تعريف هذا العمل « المضاربة فى اللغة عبارة عن أن يدفع شخص مالا لآخر ليتجر فيه على أن يكون الربح بينهما على ما شرطا والخسارة على صاحب رأس المال. وعند الفقهاء عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع أحدهما للآخر مالا يملكه فيتجر فيه بجزء شائع معلوم من الربح كالنصف أو الثلث أو الربع أو نحوها بشرائط مخصوصة» (٢). ومن هذا التعريف يتضح أن المال أمانة عند المضارب وهو وكيل وليس عقد الوكالة لازما فلكل منهما التخلى عنه بدون اذن صاحبه ولكل من الطرفين حصة معينة من الأرباح . اما اذا كان « الربح كله لصاحب رأس المال والخسارة عليه وللمضارب أجر مثله (٣) » فقد فسدت المضاربة اذ يكون المضارب فى حكم الأجير . وعلى هذه الأسس اصطلح أئمة المذاهب الاربعة . ومن شروط صحتها عند الشافعية استقلال العامل بالعمل وانفراده بالتصرف كما يشترط فى العمل أن يكون فى تجارة من بيع وشراء ويكون غير مؤقت بمدة معلومة (٤) . وهذا النظام الذى شرحه الفقهاء المسلمين شبيه بما كان يدعى فى أوربا خلال العصور الوسطى باسم Societas maris «وأساس هذا النظام وجود نوعين من الشركاء أحدهما يبقى فى البلد والآخر يسافر الى البلاد الاجنبية بالبضائع » (٥) والأصل فيه تسهيل العمل على التاجر الذى قد تمنعه ظروف مختلفة من القيام بالرحلة بنفسه ثم تطور الى نظام لاستثمار الأموال بدلا من تركها عاطلة فأصحاب الأموال أو السلع سواء أكانوا من التجار المحترفين

---

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٣

(٢) الجزيرى : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة ج ٣ ص ٤٣

(٣) شرحه

(٤) شرحه

(٥) Max Weber: General Economic History, p. 206.

أم من الأعيان الأغنياء يرون فى التجارة الخارجية وسيلة ينمون بها ثرواتهم ويستثمرون أموالهم (١) فإذا ما عاد الشريك أو المضارب بالثمن أو ببضاعة جديدة قومت وبيعت ثم قسمت الأرباح بين الطرفين المتعاقدين حسب نصوص الاتفاق بينهما .

وقد كان لكبار التجار فى المدن الكبرى الداخلية كالفسطاط وقوص واسوان وكلاء عنهم فى الثغور تدل على ذلك عبارة ناصرخسرو اذ أنه لما اعتزم مغادرة اسوان فى طريقه الى عيذاب ومنها الى الحجاز حصل من تاجر بأسوان على خطاب توصية الى وكيل له فى الثغر المقصود (٢). ولما كانت تجارة التوابل بصفة خاصة كبيرة وتحتاج الى رؤوس أموال كبيرة والى عدد من السفن البحرية والنيلية لنقلها الى الاسواق مما يعجز عنه الأفراد فانا نميل الى الاعتقاد بوجود شركات كبيرة من تجار عديدين ذوى رؤوس أموال ضخمة يحتكرون هذه التجارة . حقيقة نسمع عن شركة من هذا النوع في عصر المماليك (٣) ولا نظن أن شيئا مشابها لم يكن له وجود فى العصر الفاطمى بل نرجح القول أن هذه الشركة التى أصبحت فى العصر المملوكى ذات سلطان كبير كان لها وجود فى العصر الفاطمى وإن لم تصل الى المنزلة التى بلغتها فيما بعد .

نظام السفر

إن تأخر فن بناء السفن فى هذا العهد جعلها تتعرض لأكبر الأخطار فى البحر من ناحية العوامل الطبيعية ، فضلا عن خطر القرصان وفتكهم بها واعتدائهم على الركاب بالقتل والسلب . لهذا لم يكن من المستطاع أن تخرج السفينة بمفردها حتى لا يكون ركابها تحت رحمة هذه الظروف جميعا وهنا اتبعوا نظام القوافل وبمقتضاه يحدد ميعاد للابحار فإذا تكامل العدد خرجت السفن دفعة واحدة الى الجهة المراد السفر اليها وتكون القافلة اما فى حراسة احدى السفن الحربية أو مزودة بأساليب الدفاع عن نفسها ضد اعتداء القرصان . ويستدل على وجود هذا النظام مما ذكره ابو شامة

---

(١) Ibid p. 206.

(٢) Sefer Nemeh, p. 175

(٣) راجع فيت : المواصلات فى مصر « فى مصر الاسلامية » ص ٩ وما ذكره من مراجع .

وصاحب كتاب الاعتباط وغيرهما فكل من هؤلاء يذكر دائما خروج السفن على هيئة القافلة . وقد روى ناصر خسرو أمرا له أهميته اذ قال عن صقلية (وكل عام تحضر السفن اليها لنقل غلاتها الى مصر) (١) فكأن الرحلات بين مصر وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط كانت سنوية أو نصف سنوية (٢) . وهذا راجع بطبيعة الحال الى ضرورة الانتظار حتى يتجمع التجار المشتركين فى القافلة فاذا ما وصلوا الى البلد الأجنبي انقضى وقت حتى يتمكنوا من بيع متاجرهم وشراء ما يلزم من غلات وسلع فى هـذا البلد . ولـكن يبدو أن نظام هذه الرحلات كان له اتصال كبير بعوامل جغرافية تتعلق بالرياح السائدة فى حوض البحر الابيض المتوسط والمواعيد التى تهب فيها . وقد أمدنا الرحالة ابن جبير بمعلومات قيمة فى هذا الصدد اذ قال « الريح الشرقية لاتهب إلا فى فصل الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيهما والتجار لاينزلون إلى عكا بالبضائع إلا في هـذين الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف إبريل فيه تتحرك الرياح الشرقية وتطول مدتها الى آخر مايو والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر ومدتها قصيرة . فالمسافرون الى المغرب وصقلية وبلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين »(٣) . والسفر فى البحر الأحمر والمحيط الهندى كان خاضعا لنظام هبوب الرياح الموسمية فقد أقام ناصر خسرو فى عيذاب زمنا حتى حان ميعاد هبوب الرياح الملائمة (٤) ولابد أن الرحلات الى الهند وشرقي آسيا كانت تستغرق زمنا طويلا فى ذلك العهد .

أما السفر بطريق البر الى خارج مصر فكان يتبع فيه نظام القوافل ويبدو أن عدد الابل في القافلة كبير حتى قال ابن جبير فى كتاب الرحلة (ص ٦٧) أن من

---

(١) Sefer Nemeh p. 122.

(٢) فى جنوا كانت تذهب قافلة واحدة كل عام الى الشرق وفى البندقية اتبعوا قاعدة ارسال قافلتين فى العام . Max Weber: General Economic History, p. 298.

(٣) كتاب الرحلة ص ٢٩٣ — ٢٩٤

(٤) Sefer Nemeh, p. 178.

التعـذر إحصاء القوافل بين قوص وعيذاب (١). وكذلك كان يخرج من مشتول الطواحين كل أسبوع ثلاثة آلاف بعير محملة بالميرة لأهل الحجاز (٢). وكانت التجارة البرية تقاسى كثيرا بسبب رداءة الطرق وقطاع الطرق وكثرة الرسـوم والعواصف الرملية العنيفة كما فى الطرق الى السودان وبلاد المغرب وغانة . ولهذا كثيرا مافضل الحجاج طريق البحر من عيذاب على الطريق البرى المباشر من القاهرة الى الحجاز ويبدوأن التجار القاصدين بلاد الشام كانوا يفضلون طريق البحر كما يستدل من عبارة ابى شامة التى ذكرناها فى مناسبات عدة .

وكان نظام القوافل البرية دقيقا وله أصوله وقواعده فهناك مثلا الادلاء ويبدوأن أجور النقل كانت محـدودة ولا تترك لحرية الأفراد مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد أن طبقة معينة كانت تتولى هذه العملية . وقد دفع ناصرخسرو دينارا ونصف دينار للعبور من أسوان الى عيذاب (٣) وليس الأجر مرتفعا بالنسبة الى هذه المسافة التى تقطعها الابل عادة فى خمسة عشر يوما (٤) فى طريق يمتاز بالوعورة وشدة الحرارة وقـلة الماء . فكانت أجرة الجمل فى اليوم الواحد درهما ونصف درهم باعتبار الدينار يساوى ١٥ درهما .

الرسوم الجمركية

كانت الرسوم الجمركية من أهم فروع الايرادات فى الحكومة الفاطمية تفرض على الصادرات والواردات والموضع التى يستأدي منها من التجار الواردين بالسلع من البلاد الأجنبية الاسكندرية والموانى الشمالية بصفة عامة . ويظهر أن البضائع الواردة الى القطر المصرى بطريق البر من الحجاز وقوافل فلسطين والشام وبلاد المغرب كانت تؤخـذ عليها الرسوم فى مدينة مصر ، وفى حالة القوافل الآتية من السودان بطريق

---

(١) والنص يحتمل إما عدد القوافل أو عدد الابل فى القافلة و نرجح الرأيين إذ ان السلع تصل فى أوقات محدودة ولهذا تنقل فى قوافل كثيرة وكبيرة العدد إلى الموانى الواقعة على النيل

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٦

(٣و٤) Sefer Nemeh, pp. 175 — 176

الصحراء فتؤخذ الرسوم عند نقطة الوصول ولهذا قال ابن مماتي (والمواضع التى يستأدى منها من أهل الروم مصروالاسكندرية وأخميم)(١) وكانت أسوان الثغر الذى يدفع فيه التجار المكوس على البضائع التى يجلبونها من النوبة أو يرسلونها اليها ، وفى عيذاب تؤخذ الرسوم على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن(٢) وغيرها من البلاد بطريق البحر الأحمر .

واختلفت قيمة الرسوم فكان يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر الخمس ومن أجناس الروم من يستأدى منهم العشر (٣). ولم تكن الحكومة الفاطمية تتقيد كثيرا بأحكام الشرع فى هذا الموضوع ولم تكن هناك نسبة ثابتة فأحيانا تصل الى ٣٥ ٪ من قيمة البضائع وقد تهبط الى ٢٠ ٪ (٤) واختلاف الرسوم راجع الى عوامل مختلفة فكانت الرسوم المفروضة على تجار المسلمين أقل بطبيعة الحال من التى يدفعها التجار المسيحيون .

وكانت حاجة الحكومة الى الأموال عاملا آخر فى رفع المكوس وخاصة خلال الأزمات ونعتقد أنهم كانوا يزيدونها على سلع الترف .

أضف الى هذا أن الحكومة كانت لاتعامل التجار الأوربيين على أساس واحد ، ولعل هذا يرجع الى الاعتبارات السياسية أو العوامل الاقتصادية كأن تخفض الرسوم على تجار البلاد التى تمدها بما يلزمها من المواد الضرورية لصناعة الحرب ونستدل على سياسة الأفضلية هذه من وعد روجر الثانى ملك صقلية لأهل أمالفى وسالرنو بالعمل على تخفيض الرسوم التى كانوا يدفعونها فى ميناء الاسكندرية(٥). وليس لدينا دليل رسمى على قيمة الرسوم بصفة واضحة حتى نتبين مدى الامتيازات الممنوحة لبعض التجار وإذا لم يكن الأمر مختلفاً عما كان عليه فى بلاد المغرب فقد كان الحد

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين « لناشره الدكتور ع.ع سويال ع ص ٣٤٩ »

(٢) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh, p. 178.

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين « لناشره الدكتور ع.ع. سوريال » ص ٣٣٦

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٤ ابن مماتي : قوانين الدواوين « مخطوط » ص ١٤٧

(٥) Heyd: Histoire du Commerce, Tome I, pp. 391-92.

الأدنى ١٠ ٠/٠ على الواردات و ٥٠/٠ على الصادرات(١) أما الحد الأقصى فقد كان أحياناً يصل إلى ٣٥٠/٠ ولكن يؤخذ مما ذكره القلقشندى أن الرسوم كانت تتراوح فى العادة بين ١٠٠/٠ و ٢٠٠/٠ وبطبيعة الحال لم يكن هذا كل ما على التاجر دفعه فهناك رسوم إضافية تدفع عن استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن وحق الرسو بالموانى ويبدو أن هذه الرسوم لم تكن باهظة فقد كانت تتراوح فى بلاد المغرب بين ½٠/٠ و ١½٠/٠ فى نفس العصر(٢) وكان الحاج يدفع ضريبة خفيفة فى عيذاب لأهل البجة .

نظام الجمارك

لا تمدنا المصادر التى كتبت عن مصر الفاطمية بالكثير عن نظام الجمارك وإدارتها الداخلية . ولكن يظهر أنه كانت هناك إدارة فى الثغور تتولى مراقبة وصول وإبحار السفن وجباية الرسوم . فاذا ما وصلت السفينة رست في مكان معين إلى أن يصعد على ظهرها الموظفون المختصون الذين أطلق عليهم ابن جبير اسم الأمناء «لتقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش»(٣). ونعتقد أن الغرض من هذا ضبط البضائع الواردة ومقاومة أي محاولة للتهريب . وبعد هذا تنقل السلع إلى الفندق حيث يجرى بيعها أمام سماسرة معينين من قبل الحكومة وهناك موظفون للاشراف على كل شيء حتى يتيسر للحكومة الحصول على نصيبها . وكان من بين أعمال موظفى الجمرك تحديد ما تريد الحكومة شراءه من حديد وخشب وقطران وغير ذلك للمتجر المقام فى العاصمة.(٤)

---

(١) Mas Latrie pp. 106 — 107

(٢) Ibid, p. 114.

وجاء فى قوانين الدواوين لابن مماتى بعد أن تكلم على ما يستأدى من أهل الروم « وكذلك ضرائب مستقرة وعوائد مستمرة وأوضاع مألوفة وطرائق فيما بين المباشرين له معروفة » ص ١٤٨ (مخطوط)

(٣) كتاب الرحلة ص ٣٩

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين (النشره الدكتور ع. سوريال) ص ٣٢٧

ويقول ليو الافريقى عن الاسكندرية فى القرن السادس عشر إن الميناء بابين أحدهما مرسى البرج حيث ترسو السفن الكبار محملة بالبضائع الثمينة والآخر يدعى مرسى السلسلة وترسو به السفن الآتية من شمالى إفريقية(١). ونظن أن الباب الأول خاص بسفن المسيحيين والآخر لمراكب المسلمين ، ويرجع سبب ذلك إلى الاختلاف فى قيمة الرسوم التى يدفعها التجار من الفريقين وإذا صح التعليل الذى ذكرناه لهذه التفرقة فلا نرى مانعاً من وجود هذا النظام أيام الفاطميين .

وقد ذكر ابن ميسر أن مؤامرات الباطنية — وبخاصة بعد مقتل الأفضل — ألجأته إلى اتخاذ احتياطات كبيرة ومن ذلك أنه أقام موظفاً خاصاً فى عسقلان وكلفه بالتدقيق فى الواصلين من طوائف التجار والاطلاع على أحوالهم وما معهم من البضائع وأمره ألا يمكن أحداً من الجمالين بدخول البلاد المصرية إلا إذا كان معروفاً ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدمها كتاب منه إلى الديوان بعدة التجار وبأسمائهم وأسماء غلمانهم والجمالين وأصناف البضائع فاذا وصلت القوافل إلى مدينة بلبيس أوقفت وفتشت تفتيشاً دقيقاً وروجع ما معها على مافى الكتاب الواصل من عسقلان(٢).

وبرغم أن السبب فى إنشاء هذا النظام السديد سياسى يتصل بالخوف من وصول الارهابيين إلا أننا نعتقد أنه كان ذا أثر فعال من الناحية الاقتصادية إذ بواسطة هذا التدقيق صار في الامكان ضبط قيم البضاعة الواردة بالطريق البرى وجباية الرسوم الجمركية المقررة ومقاومة التهريب إذ يبدو أنه كان شائعاً فى ذلك العصر .

المنشآت الخاصة بالتجار

لما كان من اللازم تهيئة السبل أمام التجار والأجانب منهم بصفة خاصة حتى يستطيعوا مزاولة أعمالهم دون عناء كبير وحتى يتيسر للحكومة أداء واجب الاشراف على الوجه الأكمل أقيمت مبان مختلفة تتشابه من حيث أغراضها وإن اختلفت أسماؤها.

وقد أشرنا فى كلامنا بصدد الامتيازات التى كانت تمنح للتجار الغربيين إلى النص بالسماح لهم بإقامة الفنادق . ويبدو أن عددها كان كبيراً فى العصر الفاطمى وأنه كان

---

(١) Description de l' Afrique, Toue III, p. 336.

(٢) أخبار مصر ص٦٥

لكل جالية بالاسكندرية فندق على ماروى بنيامين اليهودى(١) . وكان الفندق عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الغربيون ويحفظون فيه بضائعهم ويكون إما فى داخل المدينة أو فى خارجها (٢) . ويحتوي كذلك على كنيسة صغيرة يقيم فيها التجار شعائرهم الدينية وبه فرن يصنعون فيه الخبز وفق عاداتهم وحمام ومكان يصرح لهم فيه بشرب النبيذ . وكانوا فى العادة يختارون أحد أفراد الجالية للاشراف على حياة الفندق العامة ويطلق على هذا الشخص اسم الفندق(٣) ولعله فى هذه الحالة يمثلهم أمام السلطات ويجوز أن أحد ذوى الجاه والمنزلة بينهم يقوم بانشاء الفندق وفى هذه الحالة يكون أشبه برئيس لهم .

وقد حدثنا ابن حوقل (كتاب المسالك والممالك : ص ٨٩ و ٩٠ و ٩١) وغيره عن بلاد صغيرة فى داخل القطر بها فنادق ومن هذه البلاد محلة صرد والبجوم والكريون . ولا بد أن التوسع التجارى الذى حدث فى العصر الفاطمى صحبته زيادة فى عدد هذه الفنادق وهذا النوع الذى أشار إليه ابن حوقل إما أنه كان مخصصاً لتجار من الشرق خاصة وإما أنه أشبه بالمصانع التى امتازت بها كثير من مدن أوربا فى العصور الوسطى . والسبب فى إنشائها أن التاجر بعد أن زاد رأس ماله وكثرت علاقاته مع داخلية البلاد أنشأ لنفسه مبانى فى جهات مختلفة يشرف عليها موظفون تابعون له(٤) حتى تسهل عليه مواصلة الاتجار مع البلاد البعيدة عن مقر عمله . ونعتقد أن التعليل الثانى أقرب إلى الحقيقة .

وكذلك أقام المصريون الوكالات « وهى فى معنى الفنادق وينزلها التجار من الشام »(٥) وقد أمر الوزير المأمون البطائحى عام ٥١٦ هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار(٦) .

---

(١) Beazley: Dawn of Modern Geography, Vol. II, p. 263.

(٢) Mas Latrie: Documents, p. 89

(٣) Albert Kammérer: La Mer-Rouge, Tome I, p. 29,

(٤) Max Weber: General Economic History, p. 216.

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٤

(٦) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢

وبجانب هذه المنشئات كان لديهم أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر . وقد وصف ابن جبير واحدة منها فى الموصل فقال : « كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض »(١) . وأشار Gaudefroy—Demombynes فى كتابه Institutions Musulmanes بالصحيفة ١٦٨ إلى أن هذه القياسر كانت مخازن للتجار الأجانب . وقد عرفت القيسارية (دائرة المعارف الاسلامية) بأنها « مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق دير وبها حوانيت ومصانع ومخازن وأحياناً مساكن وبها كذلك أروقة بخلاف السوق إذ ليس به سوى رواق واحد . والكلمة مشتقة من لفظ يونانى معناه السوق الامبراطورى مما يدل بوضوح على أنها من إنشاء الدولة . أما فى العصر الاسلامى فيبدو أنها كانت من إنشاء التجار والموظفين وأعضاء الأسرة الحاكمة » . وكان بمصر خلال العصر الفاطمى عدد من هذه القياسر كما نرى من عبارة يحيى بن سعيد فقد جاء فى صورة مرسوم بتجديد عمارة دير القصير « ورد الأوقاف والأملاك التى كانت محبسة عليه من ضياع . . . وقياسر »(٢) وهذا يثبت أنها لم تكن من إنشاء الحكومة وحدها ونعلم كذلك من أسماء القياسر التى أوردها المقريزى على أن الأمراء فى عصر المماليك كانوا يتولون إنشاءها(٣) فهى نوع من استثمار المال والكسب . وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم بها الصناع والتجار بأجر(٤) ومن هذه الاوصاف المختلفة نرى أن القياسر كانت تنشىء للتجار الأجانب على اختلافهم وإن كان التجار الأوربيون يفضلون فنادقهم بطبيعة الحال . وفى الوقت نفسه نجد هذه المباني ذات أقسام خاصة لمبيت التجار والصناع بصفة مؤقتة

---

(١) كتاب الرحلة (طبعة مصر) ص ٢١٤

(٢) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٩

(٣) الخطط جـ ٢ ص ٨٧ وما بعدها (الفصل الخاص بالقياسر)

(٤) شرحه جـ ٢ ص ٨٧ و ٨٩

أو دائمة بل ولعله كان بها أماكن للصناع لمزاولة أعمالهم . وكانت العادة أحياناً أن يوقف أمثال هذه المنشئات على الأعمال الخيرية كما ترى من عبارة يحيى بن سعيد السالفة الذكر . وكانت القيسارية تعرف باسم منشئها أو باسم ما يباع فيها كقيسارية بيبرس وقيسارية العصفر وقيسارية العنبر(١) .

وأخيراً كانت هناك الخانات وقد حدثنا ناصر خسرو عن العدد الكبير منها فى مدينة مصر حيث كان إيجار الواحد منها لا يقل عن اثنى عشر ألف دينار فى السنة(٢) ولكنهم كانوا يشيدون الخانات كذلك لأعمال الخير كإيواء أبناء السبيل والمسافرين كما تدل على ذلك عبارة المقريزى عن خان السبيل(٤) .

التسعير ومقاومة الاحتكار

من الأنظمة السائدة فى العصور الوسطى بأوربا وبلاد المسلمين ما اصطلح على تسميته بالسعر العادل « fatr—price » ولذا تدخلت الحكومات مراراً لتحديد أسعار ليس فيها غبن على التاجر أو إرهاق للمستهلك وقد حدثنا ناصر خسرو أن التجار فى مصر يبيعون بأسعار محدودة(٥) ونرى لزاماً علينا فى هذه المناسبة أن نعرض لوجهة نظر رجال الشرع فى هذا الموضوع . قال ابن تيمية في كتاب (الحسبة في الاسلام ص ٣٣) « وحاجة المسلمين إلى الطعام واللباس وغير ذلك من مصلحة عامة ليس الحق فيها لواحد بعينه فتقدير الثمن فيها بثمن المثل على من وجب عليه البيع أولى من تقديره لتكميل الحرية .. . وهنا عموم الناس عليهم شراء الطعام والثياب لأنفسهم فلو مكن من يحتاج إلى سلعة أن لا يبيع إلا بما شاء لكان ضرر الناس أعظم » . ويظهر أن بعض الفقهاء يعارض فى هذا التدخل إلا إذا كانت هناك ضرورة لذلك ولهذا قال أصحاب أبى حنيفة « لا ينبغى للسلطان أن يسعر على

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص٨٧و٨٩ ؛ أوقف الحاكم بأمرالله قيسارية الصوف على الجامع الأزهر (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٤)

(٢) لا يفوتنا أن ننوه هنا بهذه المبالغة الشديدة التى لا يستسيغها العقل عن مبان فى العصور الوسطى لأن ما نجده من المحال التجارية اليوم مؤجرا بنحو ٦٠٠٠ جنيه فى السنة يكاد يعد على الأصابع فى قاهرة القرن العشرين

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٣

(٤) Sefer Nemeh, p. 153.

الناس إلااذا تعلق به ضرر العامة »(١) . ولكن يبدو أن الأغلبية لاتعارض فى التسعير بل لعلها تؤيده لما له من نفع للناس . ولهذا كانت الحكومة الفاطمية تتدخل فى الأسواق وتحدد الأسعار. ولم يقف الأمر عندذلك بل كانت تتدخل بصورة فعالة لمحاربة الاحتكار بقصد الاحتكار والتحكم فى الأسعار كما فعل الحاكم بأمر الله حين اشتكى له الناس من اختفاء الغلال وارتفاع أثمانها وما كانوا يلقون من عنت في الحصول عليها فهدد تجار الغلال بأشد العقوبات إذا لم يخرجوا ما لديهم من هذه المادة ، وإن شدة الحاكم التى عرف بها وعدم تردده فى تنفيذ ما وعد به حملت التجار على إخراج ما فى مخازنهم(٢) .

والرأى العام عند الفقهاء المسلمين يرى ضرورة التدخل الحكومى لمنع هذا العمل وفى هذا يقول ابن تيمية: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحتكر إلا خاطىء . رواه مسلم . فان المحتكر هو الذى يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم وهو ظالم للخلق المشترين ولهذا كان لولى الأمر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه مثل من عنده طعام لايحتاج اليه والناس فى مخمصة فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل » (٣) وله اتخاذ كافة الوسائل لحماية الجمهور « اذ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايتم الا بالعقوبات الشرعية فان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن . واقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور وذلك يحصل بالعقوبة » (٤) وليس فى هذا العمل حد من حرية التجارة اذ أنه من قبيل دفع الضرر العام بالضرر الخاص .

ومن الوسائل التى حرصت عليها حكومة الفاطميين للتيسير على الناس انشاء مادعي بالمتجر والاهراء . وكان المتجر فى الأصل لخزن الغلال (٥) فاذا ماشحت الأقوات

---

(١) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ص٣٤
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥٥
(٣) الحسبة فى الاسلام ص ١٤
(٤) شرحه ص ٣٨
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٩

من الأسواق سواء بسبب جشع التجار أو لنقص المحصول نتيجة لعوامل طبيعية لاسلطان للناس عليها أخرجت الحكومة مافى مخازنها وباعته للناس بأسعار معقولة . بل إن مجرد وجود آلاف الأرادب من القمح فى شون الحكومة على استعداد لانزاله فى السوق يكفل الى حد كبير عدم ارتفاع الأسعار بلا مبرر ويحول دون أى محاولة من جانب تجار الغلال للتحكم فى أسعار سلعة لاغنى للناس عنها فى معاشهم .

الاشراف على التجارة

كانت حكومة الفاطميين تفرض رقابة على أنواع العمليات التجارية واتخذت لذلك الكثير من الوسائل ومن ذلك نظام الحسبة وقد قال عنها ابن الطوير «وأما الحسبة فان من تسند اليه لايكون الا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة »(١) وقد كانت أعمال المحتسب متشعبة وله « أن يجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا ببضاعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم مشهورا بالثقة والأمانة ويكون مشرفا على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب الى سوقهم من السلع وما يستقر عليه من الاسعار وغير ذلك من الأسباب التى تلزم المحتسب معرفتها » (٢) وله أن يأمر أصحاب الموازين بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ (٣) وللعريف أن يحضر عمليات الصناعة ويراقبها ويختم عليها (٤) ، أى أنه يتدخل حتى فى التفصيلات فينبغى له مثلا أن يتفقد بائع السمك ومقلاته كل ساعة عند غيبة المحتسب لئلا يقليه بالشحم المستخرج من بطون السمك (٥) . ولا شك أن الغرض من هذه الأعمال كلها حماية الطبقات الفقيرة من استغلال الباعة والصناع كما كان القصد منها كذلك المحافظة على الصحة العامة كما يتضح لنا من قول النبراوى « ويؤمر الطباخون بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤
(٢) النبراوى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (مخطوط) ص ٥
(٣) شرحه ص ٨
(٤) شرحه ص ١٨
(٥) شرحه ص ١٤

وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار » (١) بل إن حماية أرواح الناس وصحتهم من واجبات المحتسب فعليه امتحان أرباب المهن كالأطباء والكحالين ومراقبة آلاتهم (٢). وقد يقال إن هذه الوظائف وغيرها مما سطره الفقهاء وقد يختلف هذا عن الحياة العملية ولكنا نعتقد أن الفاطميين بصفة خاصة كانوا يعنون بهذه المسائل عناية كبرى فهم الذين جعلوا التسعير سياسة مقررة وكان الفقهاء السنيون أو على الأقل الكثير منهم على خلاف هذا الرأى. وكان الخلفاء بأنفسهم يتدخلون فى شئون الأسواق بل إن الحاكم بأمر الله كان يتجول فيها اذ رأى أو اعتقد أن من واجبه أن يلم بكل ما يهم رعاياه (٣) . وبلغ من اهتمامهم بوظيفة الحسبة أن يسندوها الى الوزير أحيانا(٤). ويحدثنا مان Mann بالرجوع إلى وثائق ذلك العصر العبرية أن هذا الاشراف على الأسواق كان قائما وفي خطاب صادر من سليمان بن يهودا إلى أفراهام بن شماريا نجد ذكراً لبعض مشهورى الطائفة الاسرائيلية فى الفسطاط أمثال صدقة بن عزرة وحلفون بن حليفى وكان الأخير يشغل منصب « الموظف المشرف على التجار »(٥) . ولم يوضح لنا (مان) نوع عمل هذا الموظف فهل هو أحد العرفاء ممن يستعين بهم المحتسب أم هو موظف يختص بشئون الاسرائيليين

---

(١) النبراوى ، مصدر سابق ص ١٤

(٢) شرحه ص ٣٩ — ٤٠

(٣) Documents sur l'Histoire des Ismailiens ou Batinies de la Perse, par M·C· Defrèmery (Trad·du texte du Vizir Ala — Eddin Djoneiny, Jour Asiat·, 5è sér., No 58, Fevrier-Mars, 1860, p· 142.)

ويذكر المقريزى أن الخليفة العزيز أمر فى سنة ٣٨٢ هـ بنصب الأزيار مملوءة بالماء على أبواب الحوانيت وابقاء المصابيح على الدور وفى الأسواق وكذلك فعل الحاكم بأمر الله سنة ٤١٥ هـ (الخطط جـ ٢ ص ١٠٨)

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥ . وهذا يتعلق بيعقوب بن كلس إذ تقلد فى المحرم من سنة ٣٥٢ هـ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة والسواحل الخ .

(٥) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, p. 81.

وقد ترجم المؤلف النص العبرى بما يأتى : —

« The official over the merchants.

وحدهم، ونرجح أنه شخص كان مكلفا بالاشراف على محال الجزارة اليهودية والتفتيش عليها اذ ربما كان المسلمون لا يميلون الى تولى هذا العمل .

وكانت للفاطميين وسائل متنوعة لمحاربة الغش فالى جانب العقوبات المعروفة لجأوا إلى التشهير أحيانا وهو سلاح معنوى له أثر فعال فى بعض النفوس ولهذا كان التاجر اذا غش أركبوه جملا وطافوا به فى الطرقات وهو يصيح : لقد غششت فعوقبت (١) .

ومن وسائلهم أيضا فى مراقبة التجارة انشاء دار العيار يحتاط فيها للرعية وينفق عليها من الديوان فيما تحتاج اليه من الأصناف كالحديد والنحاس والخشب وغيرذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ولا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار . وكانوا يكلفون جميع التجار بالتوجه الى الدار ومعهم آلاتهم للكشف عليها فان وجد بها عيب أو نقص أتلف وكلف شراء غيرها (٢) ثم تطور الأمر فأذن لهم اصلاح ما فيها من عيب. ويرى Casanova فى هذا العمل الأخير اجراء ماليا صرفا القصد منه زيادة موارد بيت المال(٣) .

وفضلا عن هذا كله كانت هناك حاميات فى المراكز الهامة وعلى الطرق الرئيسية بقصد حماية المتاجر من اعتداء الأشرار وقطاع الطرق كما يستدل من عبارة ذكرها (مان) (٤) .

---

(١) Stanley Lane—Poole: The Story of Cairo, p. 109.
(وهو فى هذا يعتمد على ماروا ناصر خسرو)

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤

(٣) Etude sur les Inseriptions Arabes des poids et mesures en verre, p. 7.

(٤) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, p. 32.

وفيما يلى ترجمة النص الذى ذكره المؤلف (ولما سرت التهم الموجهة الى اليهود فى الأماكن الصغيرة والقرى المحيطة بالفسطاط وبين حاميات الطرق التجارية Garrisons of the Commerce-routes وكذلك فى الاسكندرية أصبح اليهود فى خطر من أن يتعرضوا الى مذبحة تقضى عليهم) وهذا الحادث يرجع الى السنوات الأولى من خلافة الحاكم بأمر الله قبل أن يبدأ الاضطهاد الكبير الذى تعرض له أهل الذمة

ومن أساليب رقابة الحكومة فى العصر الفاطمى نظام السمسرة كما تدل على ذلك عبارة المقدسى « وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي أن يمسح شيئاً منها إلا بعد أن يختم عليها السلطان ولا تباع إلا على أيدى سماسرة عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ذلك فى جريدته(١). وقد ذكرنا النبراوى أسماء الدلالين والمنادين وهم يتسلمون بضائع الناس ويقلدونهم الامانة فى بيعها ولا ينبغى لأحد منهم أن يزيد فى السلعة من نفسه ولا يكون شريكا للبزاز ولا يقبض ثمن سلعة من غير أن يوكله صاحبها فى القبض(٢) . وكان هؤلاء الناس موضع رقابة المحتسب أو نوابه ، بل نرجح أنه كان يتدخل فى تعيينهم . ومما يدل على انتشار نظام السمسرة أننا نجد ذكرا لرسومها مما ألغاه صلاح الدين الأيوبى في سنة ٥٦٩ هـ (٣)

الاحتكار

وقد احتكرت الحكومة الفاطمية بعض منتجات الزراعة والمناجم وذلك لأغراض مختلفة ، فاحتفظت لنفسها بالاخشاب فى مناطق الغابات في الوجه القبلى ما عدا الاطراف وما يتساقط من الاشجار وما ينتفع به فى الوقود ويسمى حطب النار ، ويبايع الديوان التجار عليه بسعر الحملة الواحدة أربعة دنانير . ولم تجر عادتهم ببيع شىء من احراج البهنسا الا ما فضل عن حاجة المطابخ بالقصور وفى هذه الحالة تباع كل مائة حملة بثمانية دنانير . وليس لأحد كذلك التصرف فى القرط وهو ثمرة السنط ويبايع الديوان الناس عليه بسعر يتراوح بين سبعين وثلاثمائة دينار لكل مائة أردب مطحون . أما الشب والنطرون فيؤتى بهما من مواطن الانتاج ويسلمان الى الديوان الذى يبيعه لتجار الروم الواردين على ثغر الاسكندرية . وكان محصول الشب فى السنة اثنى عشر ألف قنطار يباع القنطار منه بسعر يتراوح بين أربعة

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢١٣

(٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة « مخطوط » ص ٢٦

(٣) المقريزى : ج ١ ص ١٠٤

وستة دنانير ويحتفظ بجزء للمستهلكين بسعر ٧ ½ دينارا للقنطار. وكانوا يستخرجون من النطرون عشرة آلاف قنطار (١).

ويرجع هذا الاحتكار لبعض المواد الى أن الخشب مثلا كان ضروريا لبناء المراكب التابعة للديوان ولحاجة القصور الفاطمية.

وكانت الحكومة تستولى على محصول النطرون والشب لاحتياج تجار الروم اليهما وتبيعهما بأسعار مقابل الحصول على بعض المواد الضرورية من الخارج. وأخيرا يجب ألا ننسى الاعتبارات المالية بقصد زيادة ايرادات بيت المال (٢) وهذه تفسر لنا كثيرا من تصرفات الحكومة فى العصر الفاطمى. وكانت هذه السلع المحتكرة تقيد لحساب التجر الذى يتولى التصرف فيها ويبتاع له أيضا من البضائع التى يأتى بها تجار الروم من الخشب والحديد والقطران وحجارة الطواحين والبياض(٣). وقد كتب ابن خلدون فصلا عن اشتغال الحكومة بالاعمال التجارية واحتكار بعض السلع فقال « ان الدولة اذا ضاقت جبايتها لجأت الى استزادتها بوسائل متنوعة منها « استحداث التجارة والفلاحة للسلطان وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والمصانع وتيسير أسباب ذلك فان الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان فى ذلك وما له اعظم كثيراً منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غشا أو بأيسر ثمن أولا يجد من يناقشه فى شرائه فيبخس ثمنه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة وفعلها كله من زرع أو حرير أو عمل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين « مخطوط » ص ١٤٩ و١٥٤ وانظر المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٩

(٢) جاء فى المصدر السابق ص ١٥٤ عن النطرون « والنفقة على كل قنطار منه درهمان ومبلغ ثمن القنطار لضيق الحاجة إليه بمصر والاسكندرية سبعون درهما »

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين . مخطوط . ص ١٤٨

حوالة الأسواق ولا نفقات البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون فى أثمانها إلا القيم وازيد فيستوعبون فى ذلك تأخر أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة ويمكثون عطلا عن الإدارة التى فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شىء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن (١)

وكان الديوان يبتاع من هذه البضائع من تجارة الروم الواردين مما تدعو إليه الحاجة فان زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئا عما يجب عليه من الخمس أعطى به شيئا بحق الثلثين وذهبا بحق الثلث (٢).

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٣ — ١٥٤

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين « مخطوط » ص ١٤٨ : . لنشره الدكتور ع. سوريال ص ٣٢٧ .